يوم كنا نمشي على الطريق

مجموعة قصصية من زمن الكورونا

عامر حريري

جميع الحقوق محفوظة للكاتب: عامر حريري

الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة

جميع الحقوق محفوظة. لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة من دون الحصول على الموافقة الخطية من الكاتب.

يوم كنا نمشي على الطريق

مجموعة قصصية من زمن الكورونا

الإهداء

إلى الأحلام التي تحققت والتي
لم تتحقق قط ... إلى تلك الطرق
التي مشينا بها طويلاً ولم نعد نستطيع..
إليكَ أنتَ أُهدي ما كتبتُ وما
سأكتب.. رحمكَ الله

لستَ من أولئك العظام الذين تلتمع العيون عند رؤية إحدى مؤلفاتهم على أرفف المكتبات أو في المتاجر الإلكترونية ... أنا كاتب بسيط إن كان هناك شيء في هذه الدنيا بهذا الاسم ... تستطيع أن تتخيلني كتلك المرأة العجوز التي تستيقظ في الصباح لتخبز خبزها على التنور ... ولو مررتَ قربها فستعطيك رغيفاً ... سيكون الرغيف ملطخاً بالسواد وهباب الفحم ولن يكون مستديراً جداً ... لن يكون رغيفاً جميلاً ولكنك لن ترى وتتذوق مثله في المخابز الفخمة ... عليك أن تجرب رغيف التنور ورغيف المخابز لكي تستطيع القول أنك جربتَ كل شيء.

عامر

البحث عن كورونا

ساد الهدوء أرجاء المبنى بعد أن بدأت تخفت حركة الغاديين والرائحين ... ولم يبدو هذا الأمر طبيعياً في هذا الوقت من الصيف حيث كان من المفترض أن تحدث هجرة معاكسة من البيوت نحو الحدائق بحثاً عن الأنسام الرحيمة ... كان من المفترض حدوث ذلك ولكن يبدو أن هناك أمر ما قد حدث ومنع السكان من أن يقوموا بنشاطهم المعتاد ... كان المكان هادئاً فعلاً إلا من بعض أحاديث متقطعة تأتي من أمكنة ما مختلطة بأصوات الصحون

والملاعق ... لكن بالنسبة للمنطقة الخلفية من المبنى فلم يكن الأمر كذلك ... لم تكن تلك الزاوية من المبنى تحظى باهتمام أي أحد من السكان ... كانت تحوي باب النجاة مع حديقة صغيرة تنام بها القطط عادة أو تقف في ساعات الظهيرة لتلتقط بقايا الطعام التي يرميها السكان من نوافذ المطابخ أو تنتظر فأراً أحمقاً قد يمر ليشكل حلاً لمشكلة الأمعاء الخاوية لقط متحمس ما ...

لم تكن الأمور تسير هكذا في هذا الوقت من النهار... فالقطط تكومت في زوايا السور وهي تنظر بأعين متسعة نحو باب النجاة ... كانت هناك خطوات خافتة تقترب باستمرار تصدر من مكان ما خلفه ثم ظهر فجأة صبي صغير أخذ يتلفت حوله ثم وقف ينتظر في صمت بجانب باب النجاة ... بعد دقائق قليلة كان هناك صبي آخر يعبر الباب ويقف أيضاً بجانب باب النجاة بعد أن تبادلا تحية سريعة ... خلال الدقائق القليلة التالية كانوا قد أصبحوا خمسة

صبية ... كانت أعمارهم متقاربة كما بدا من قامتهم وملامح وجوههم ... سألهم الصبي الأول بصرامة:

- هل لمحكم أحد وأنت تأتون هنا؟

هز الجميع رؤوسهم بالنفي ورد عليه أحدهم:

- لم يكن هناك أحد في الممرات وبكل الأحوال لا أحد يستعمل درج النجاة سوانا.

هز رأسه عدة مرات ثم أخذ يرمي كرة صغيرة نحو الحائط ويلتقطها باستمرار ثم قال بلهجة حاول أن تبدو خطيرة :

- هناك مشكلة يجب أن نبحث عن حل لها قبل فوات الأوان.

تبادل البقية نظرات صامتة ثم سأله أحدهم:

- أي مشكلة تقصد يا رامي ... إذا كنت تقصد كرتك التي سقطت في حديقة ذلك العجوز فس ...

قاطعه في عصبية قائلاً:

- لقد إشتريت واحدة بدلاً منها وسأجعله يندم عن تمزيقها ورميها في وجهي ولكن ليس الآن ... هذه ليست مشكلة بالنسبة لي.

ثم أضاف وقد اتسعت عيناه:

- منذ قليل كنت ألعب في غرفتي عندما ناداني والدي وطلب مني بلهجة قاطعة أن أكف عن الخروج من المنزل ... سألته عن السبب فقال لي أن مرضاً مميتاً اسمه كورونا يصيب الناس ويجعلهم يختنقون حتى الموت ... وأنه سيعاقبني لو تجرأت على الخروج.

همهم الباقون بكلمات الدهشة وقال أحدهم:

- أنا أيضاً قال لي والدي كلاماً مشابهاً ... لقد ظننت أنها حُجة على غرار بقية الحجج التي قالها لي مراراً ليمنعني من فعل أمور عديدة

هز رامي رأسه بقوة قائلاً:

- كنا نمنع من الجلوس أمام التلفاز لفترة طويلة أو شد شعر أخواتنا ثقيلات الظل ... لكن الحبس في البيت!! هذا أمر مختلف.

هز الصبية برأسهم موافقين وتقدم أحدهم خطوتين وهو يقول :

- هذه الكورونا هي نوع من الخداع وحيلة من الكبار لكي يحبسونا في المنزل ويذهبوا الى الرحلات والحفلات بمفردهم من دون أن نزعجهم بلعبنا وأصواتنا.
- معك حق يا مهند ... الكورونا كذبة من الكبار ... أعتقد أنهم اتفقوا عليها منذ يومين أثناء اجتماع السكان الشهري.
- ليس بالضرورة أن يكون كذبة يا علي ... قد يكون شيئاً جميلاً اكتشفه الكبار ولا يريدوننا أن نراه ونلعب به.

قال أحدهم بحماس:

- قد يكون كورونا شخصاً يحب إعطاء الهدايا وهم يريدونها لهم فقط

سأل أحدهم في حيرة:

- وهل يريدون اللعب بالألعاب مثلنا!؟

رد رامي:

- قد يكون كيسه مليء بالهواتف واللّوحيات وليس بالألعاب ... قد يكون شخصاً مسلياً وماهراً باللعب ولا يريدوننا أن نلعب معه.
- لماذا طيب!؟
- هكذا هم الكبار ... لا يحبون أي شخص يثبت أنه أفضل منهم.

هز البقية رأسهم في اقتناع

في تلك اللحظة حطت حمامة بالقرب منهم وهمّ أحد بالكلام على حين لوح مهند بيده وقال بسرعة:

- شششش أخفضوا أصواتكم ولا تدعوهم يسمعونا .

همس علي وهو يتلفت حوله بخوف:

- من تقصد ... هل هناك أحد قادم!؟

اتسعت عينا مهند وهو يقول:

- الكبار ... سمعت أن الحمام به أجهزة تنصت وأنهم سيستغلون بقاءنا في المنزل ليستبدلوا بطارياتهم بأخرى جديدة.
- لذلك عندما كنت أسأل أمي عمن أخبرها بكل الأسرار التي تعرفها عني كانت تقول لي بكل ثقة أن العصفورة أخبرتها.

أخذوا يراقبون الحمامة في فضول ودهشة وسألهم علي فجأة :

- هل يوجد بداخلنا نحن أيضاً أجهزة تنصت؟

وجم الباقون وغمغم رامي بتوتر:

- لا أعرف ولكني لا أستبعد أن يفعلوا ذلك بنا.
- ولكن إذا كان هذا صحيحاً فكيف يستبدلون بطارياتنا!؟

ساد الصمت قليلاً ثم قال مهند فجأة:

- أنا عرفت ... عندما نمرض يضحكون علينا ويدّعون أنهم يضعون التحاميل في مؤخراتنا على أنها دواء وهي في الحقيقة بطارية جهاز التنصت.
- الكبار أشرار فعلاً.

هز الصبية رؤوسهم في حسرة ثم أردف علي:

- أرجوا أن لا يكونوا قد سمعوا حديثنا عن كورونا.
- لا أعتقد أنهم يستطيعون سماع كلامنا مباشرة ... أكيد هم يصرون على أن ننام مبكراً لكي يتنصتوا على ما قمنا به طوال النهار من دون أن يفتضح أمرهم.

صمت الجميع لثوان ثم قال مهند فجأة:

- يجب أن نبحث عن كورونا بسرعة قبل أن يعرف الكبار أي شيء.
- كيف وأين سنبحث عنه!؟

- اليوم ... سنخرج في الليل ونكتشف ما يحدث بالضبط.

ساد الصمت وتبادلوا نظرات متوترة فقال رامي بغضب:

- ماذا!؟ ... هل تخافون من الخروج في الليل كالفتيات!؟ سنجتمع هنا الساعة السابعة وسنبدأ تنفيذ الخطة وسنسخر بعدها طوال الوقت من الذي سيختبأ في بيته ... لنعد إلى بيوتنا الآن.

بدأ الصبية بالإختفاء داخل باب النجاة على حين إقترب مهند من رامي وأحاط كتفه بيده وهو يهمس له:

- لن يأتي فراس بالتأكيد لذلك أنصحك بأن تتجاهله ... لو أتى معنا سيتبول على نفسه لو شعر بالخوف وستفوح رائحته في أرجاء المكان ويفضحنا ...

ضحكا سوية ثم قال رامي وهو يتجه لباب النجاة:

- معك حق ... أخبر ذلك الأحمق بأن لا يأتي ... حاول أن تضع شيء ما في جيبك لتدافع به عن نفسك وقت اللزوم ولا تتأخر.

.....

هبت بعض النسمات الباردة وحركت أغصان الشجيرات المنتشرة في أرجاء الشارع ... الربيع يلوح بيده الليلية الباردة للصيف الذي لم يصبح سيد الموقف بعد ... عادت وهبت نسمات أخرى دفعت الرجل البدين العجوز لضم أطراف معطفه بقوة ... كان يجلس منتظراً وصول الحافلة الأخيرة في هذه الليلة ... ناقلاً أنظاره بين ساعته وطرف الطريق الذي ستأتي منه متسائلاً في قلق عن سبب تأخره ... سيكون السير من الضاحية نحو مركز المدينة ضرباً من الجنون ... أين هو ذلك الأحمق!!؟ وسرعان ما انفرجت أساريره وهو يحدق في أضواء الحافلة التي

أخذت تقترب في هدوء ... بصق على الأرض ثم صعد وهو يهمهم بكلمات مبهمة ... وانطلقت الحافلة لتكمل سيرها ...

في تلك اللحظة خرجت ثلاثة أشباح قصيرة القامة من وراء سور عند بداية الطريق المعتم ووقفت تتلفت حولها ... كانت الإضاءة ضعيفة حقاً ولكننا نستطيع أن نتبين ملامحهم ... كان الثلاثة هم رامي ومهند وعلي

نفخ رامي في ضيق قائلاً

- أخيراً ذهب ذلك الخرف ... ما الذي يدفع شخصاً عجوزاً لمغادرة بيته في هذا الوقت من الليل!!؟

ثم التفت إلى الآخرين وسألهم:

- هل أحضرتم الأسلحة والكشافات؟

لوح مهند بسكين صغيرة على حين رفع علي عصاة يحملها بيده في الهواء وأضاءوا كشافاتهم بضع مرات ... ابتسم رامي في رضا وقال:

- هيا بنا.
- إلى أين!؟
- عن ماذا كنا نتكلم طوال اليوم!؟ لنعرف طبعاً ما هي قصة الكورونا ولنكتشف خدعة الكبار.
- مفهوم ... ولكن من أين سنبدأ؟

تلفت رامي حوله ثم أشار إلى اتجاه ما وقال:

- نحو المنطقة الغربية طبعاً ... لا بد أنهم يخفون الحقيقة هناك.
- المنطقة الغربية!!! ولكنها محرمة علينا ونحن ممنوعون من الذهاب إلى هناك منذ ولدنا

لوح رامي بحماس قائلاً:

- هنا بيت القصيد ... هم لن يخفوا هذه الكورونا تحت نوافذ بيوتنا ... هم جهزوا أنفسهم لهذا اليوم منذ زمن طويل لذلك كانوا يحذرونا مراراً من الذهاب إلى هناك.

ثم صمت قليلاً وأضاف:

- هل تذكرون مجد؟

تبادل مهند وعلي النظرات ثم سأله علي:

- هل تقصد ذلك الولد الذي كان يسكن هو وعائلته في مبنانا وانتقلوا منذ أشهر.

هز رامي رأسه موافقاً وقال:

- تماماً ... لقد جلست معه قبل أن ينتقلوا بأيام وحكا لي قصة عجيبة حول المنطقة الغربية.

حدقا فيه بفضول وهم يقتربا منه أكثر فتابع كلامه مزهواً:

- أنا وحدي أعرف السر ... لقد أخبرني وهو يهمس ويتلفت حوله خوفاً من أن يسمعه أحد من عائلته.
- هه ... بماذا أخبرك؟

أمسك بأيديهم وسحبهم نحو جانب السور وهو يتابع كلامه:

- مجد ولد شجاع حقاً ... لقد نُبه مثلنا تماماً بعدم الاقتراب من المنطقة الغربية ولكنه لم يأبه وذهب إلى هناك .

اتسعت أعينهم ورددوا بذهول:

- ذهب إلى هناك!؟ ماذا رأى؟ أخبرنا بسرعة.

ابتسم رامي بخبث وقال:

- كان الوقت ليلاً كهذا الوقت بالضبط ... تسلل من المنزل ومشا طويلاً حتى وصل لهناك ... أخبرني أن المنطقة مليئة بالأحراش ولا يوجد فيها سوى مبنى واحد كبير ... اقترب من المبنى ... كانت جميع نوافذه مضاءة ... اقترب من إحدى تلك النوافذ ومد رأسه ورأى ..

وسكت رامي وهو ينظر للبقية في جذل ... هزه علي بقوة قائلاً :

- لم صمتَّ هكذا!؟ ... أخبرنا ماذا رأى.

ارتسمت ابتسامة غامضة على وجه رامي وقال في هدوء :

- لقد شاهد حفلة لم يرى لها مثيل لا في أعياد الميلاد التي حضرها ولا على التلفاز ... رأى الكثير من الكبار جالسين في مجموعات في قاعة كبيرة في المنزل وهم يفعلون أشياء غريبة.
- مثل ماذا؟

هز رامي رأسه وقال:

- إذا أردت أن تعرف فما عليك سوا الذهاب معي لترى بنفسك ما يجري هناك.

نظر مهند على الأرض متمتماً:

- ولكن ...
- ولكن ماذا!؟ هل ستفوح منك رائحة البول أنت أيضاً ... إن كنت ستخاف فلماذا أتيت أساساً ... هه!؟

- أنت تعرف ما قد يمكن أن يحدث لنا لو تجرأنا وذهبنا لهناك ... لقد أكل سعيد علقة ساخنة من والده لمجرد أنه سأله مرة عن المنطقة الغربية.

ابتعد رامي عنهم واعتدل وقال في تصميم:

- الآن سأعرف من يستحق أن يبقى في شلتنا ومن سأطرده لينضم إلى شلة الفتيات ... لو كنتم تخشون الذهاب فهيا عودوا إلى بيوتكم ولكن لا تروني وجوهكم الجبانة مرة أخرى.

تبادل مهند وعلي النظرات مرة أخرى ثم قال علي بتصميم:

- سأذهب معك.
- وأنا أيضاً.

قال رامي في انتصار:

- هيا بنا إذن فلقد أضعنا كثيراً من الوقت.

.....

كان المدخل الوحيد للمنطقة الغربية يقع وراء موقف الحافلات مباشرة ... هناك وراء الجدار حيث الأرض الخالية من المباني والتي تتصل مباشرة بالأحراش ... الخيار الآخر أن يدوروا لمسافة طويلة حول الجدار الذي يحوي أراض زراعية مليئة بكلاب الحراسة ... تسللوا بسرعة وتسلقوا الجدار ثم قفزوا نحو الطرف الآخر وتابعوا سيرهم حتى اقتربوا من الأحراش ... كان هناك طريق طويل يفصلها عن بقية المنطقة ... وقفوا أمامها بتردد ثم أضاءوا كشافاتهم ... لم يعجب هذا الكائنات القابعة في الظلام هناك فبدأت في التململ وطار عصفور ما فزعاً من ذلك الضوء المفاجئ.

أطفأ علي كشافه وقال بصوت مضطرب:

- لن نستطيع السير داخل الأحراش ... إن لم تهاجمنا أحد الحيوانات فبالتأكيد ستمتلأ أجسامنا بلسعات الحشرات.

هز البقية رؤوسهم موافقين ثم قال رامي:

- لا مفر من إتباع نفس طريقة مجد ... سنسير على الطريق بمحاذاة الأحراش حتى نقترب من ذلك المبنى ثم سنتسلل من بين الأشجار هناك.

هكذا تابعوا السير عبر الطريق الطويل ... لم تنجح الأضواء الخافتة القادمة من المباني البعيدة في جعل الظلام الدامس ودوداً تجاههم لذلك أخذوا يتلفتون حولهم باستمرار وهم يمسحون بالكشافات أرجاء المكان ... تلك الأصوات القادمة من الأماكن القريبة والبعيدة ... الأصوات المجهولة المصدر التي هي أبعد من أن تعطيك أي شعور بالاطمئنان ... فجأة سمعوا صوت أحاديث تأتي من مسافة قريبة منهم ... اتسعت أعينهم وهم يلتصقون ببعضهم متهامسين :

- هل سمعت هذا!؟
- أجل ... من هؤلاء يا ترى ... هل هم بشر!؟

- لا أدري حقاً ... سمعت أن الجن يتجمعون ليلاً في المناطق الخالية ليتحدثوا عن مغامراتهم.

إبتلع مهند ريقه بصوت مسموع وهمس بخوف:

- سيشعرون بوجودنا وبعدها سيكون الويل ... لنعد من حيث أتينا.

زجره رامي بصوت خافت قائلاً:

- إذا كنا لا نستطيع رؤيتهم فكيف سنستطيع سماعهم يا أحمق ... هؤلاء مثلنا يبحثون عن الكورونا .

همس علي بصوت مرتجف:

- قد يكونوا لصوصاً أو خاطفي أطفال ... إذا كان لا بد من متابعة السير فلنبتعد عنهم ما أمكن .

هز البقية رؤوسهم وأطفئوا كشافاتهم وتابعوا السير ببطء وحذر شديد ... كانوا قد إقتربوا من مصدر الأصوات وبدأ الحديث يزداد وضوحاً ...

- أين ذلك المشروب الجديد الذي وعدت بجلبه الليلة!؟
- وهل تصدق كل ما يقال لك يا أحمق ... لقد قلت ذلك لكي تأتي فقط
- ماذا قلت يا قذر!؟ هل تظنني لعبة لكي تتجرأ على ذلك!!؟
- اهدأ ودعني أتكلم ... لا بد أنك سمعت عن الإشاعات التي تتكلم عن إبقاء الناس في بيوتهم خوفاً من الكورونا وعن حظر التجول الذي تفكر الحكومة في فرضه ... لو حدث ذلك فنحن في مشكلة كبيرة ... سيظل الناس طوال الوقت في منازلهم ولن يبقى هناك منزل خال نستطيع سرقته ... ستملأ دوريات الشرطة الشوارع ولن نستطيع أن نتبول حتى على جانب الطريق في أمان.

- هه ... سمعت سمعت ولكن هل تصدق أنه من الممكن حدوث ذلك ... من سيستطيع الجلوس في بيته من دون عمل!؟
- إذا حدث ذلك ستغلق المحلات وستتوقف جميع الأعمال ... ولن نستطيع أن نسرق شيئاً ... سنقع في مشكلة كبيرة.
- وما الحل برأيك؟
- يجب أن نقوم الليلة بعملية نخرج منها بمبلغ كبير يكفينا حتى تعود الأمور لطبيعتها ...
- الليلة!! ... هكذا من دون تخطيط!
- دعك من التخطيط العملية جاهزة فعلاً ... سنذهب الآن ونقوم بها ... ما رأيك؟
- أين؟
- في معمل السجاد ... علمت أنهم لم يستطيعوا اليوم وضع أموالهم في المصرف بعد أن أغلق مبكراً لذلك أعادوها للمعمل

... ستكون عملية دسمة ولكن لن أستطيع القيام بها وحدي.

- سأكون معك ولكن بشرط أن نتقاسمها مناصفة ... هل سمعت!؟ مناصفة وليس مثل المرة السابقة.
- لقد شرحت لك وقتها لم حدث ذلك و...
- قلت لك مناصفة ... مهما حدث أريد نصف العملية.
- طيب طيب ... مناصفة ... لنذهب الآن.

وسمعوا صوت خطواتهم تبتعد نحو الاتجاه الآخر ... همس مهند قائلاً:

- هل سمعتم؟ ... سيسرقون معمل السجاد ... ماذا سنفعل الآن!؟

هز رامي كتفيه وقال:

- لن نفعل شيئاً ... نحن لم نتعرف عليهم حتى ... وعلى فرض أننا عدنا وأخبرنا عائلاتنا بما حدث عندها سنأكل علقة ساخنة

وبعدها حتى لو أبلغوا الشرطة سيكون اللصوص قد حصلوا على ما يريدون وعادوا لبيوتهم ... الأفضل أن نترك علامة لكي نرشد الشرطة لمكانهم هنا.

- وبماذا ستستفيد الشرطة من مكانهم!؟
- لابد أن أحدهم قد بصق أو ترك شيئاً ما ... سيجمعون الأدلة والبصمات وسيكتشفون القاتل من خلالها كما رأيت في ذلك المسلسل الأجنبي.

أخذوا يتلفتون حولهم ثم تسائل علي:

- الظلام دامس ولن نستطيع ترك أي علامة ... هل أتبول مثلاً؟
- وهل هذه علامة يا أحمق!؟ اصمت ودعني أفكر.

ثم وقف أمام أحد الشجيرات ونزع حزامه وربطه حولها ... تابعوا بعدها السير نحو المنطقة الغربية.

.....

مع كل هذه الإضاءة المنبعثة منه بدا المبنى واضحاً تماماً ... كان أشبه بقصر صغير مستدير الأركان ... وقفوا ينظرون له في صمت ثم تابعوا السير باتجاهه تسللوا بعدها بين الأحراش حتى وصلوا لسوره الخلفي ... كان السور عالياً وصعب التسلق علاوة على الأسلاك الشائكة التي غطت قمته ... تبادلوا الأنظار في حيرة ثم قال مهند بإحباط:

- بعد كل هذا التعب لن نستطيع الدخول.
- ألم تسأل نفسك كيف استطاع مجد الدخول؟

التفت علي ومهند نحو رامي وسألوه بلهفة:

- صحيح ... كيف استطاع اجتياز هذا السور العالي؟
- هناك فتحة صغيرة في هذا الطرف استطاع الدخول والخروج منها... لنبحث عنها.

انتشروا حول السور وبدأوا البحث وبعد دقائق قال علي بيأس:

- لا بد أن شخصاً ما قد سدها.
- ها هي ...

ارتفع صوت مهند بانتصار ... أسرع البقية لمكان وقوفه وأشار نحو فتحة صغيرة كانت تختفي خلف بعض الحشائش ...

- من الأول؟

أشار رامي بيده واتجه نحو الفتحة وبدأ بعبورها ثم تبعه البقية ...

كان المشهد بالداخل مختلفاً ... الحديقة الكبيرة التي انتشرت بها شجيرات الورود وأعمدة الإنارة والممرات والمقاعد الخشبية ... أخذ الثلاثة يسيرون بهدوء وقد بدأت قلوبهم تخفق بشدة ... وصلوا نحو نافذة عريضة فأخذوا ينظرون من خلالها في حذر ... كانت هناك قاعة كبيرة بجدران وأعمدة مزخرفة يتوسطها درج عريض يتلوى قادماً من أعلى على

حين انتشرت الأرائك الفاخرة في زوايا القاعة ... كانت القاعة تحوي العديد من البشر الواقفين بمجموعات ووضعيات مختلفة في أرجاء القاعة ... اتسعت أعينهم وهمس علي بانبهار :

- ما هذا الذي يفعلونه ...
- هسسسسس ... أسكت وراقب فقط.

تجمد الصبية وهم يحدقون فيما يجري في داخل القاعة ... فجأة سمعوا صوتاً نسائياً يسألهم:

- ماذا تفعلون هنا أيها الأولاد!؟

رفع الثلاثة رؤوسهم وشاهدوا امرأة تقف على شرفة في الطابق الأعلى وهي تنظر لهم بسخرية ... لم يحيروا جواباً فتابعت تقول وهي تضحك ضحكة عابثة :

- هل تريدون الدخول ومشاركتهم؟

بقوا صامتين فأشارت لهم بالاقتراب ثم قالت وهي تميل قليلاً نحو الأسفل :

- هل أعجبكم ما رأيتموه؟ ... هيا تكلموا ولا تقفوا كالحمقى.

رد رامي بصوت مرتجف:

- لماذا يفعلوا هذه الأشياء؟
- لأنهم كبار أيها الصغير ويحبون اللهو ...
- هل كورونا موجودة في الداخل معهم؟؟

ضحكت المرأة بصوت عال وأخذت نفساً عميقاً وقالت:

- نعم نعم ... كورونا وجميع أصدقائها في الداخل ... تعالوا لأصحبكم في جولة ببقية القاعات.
- ماذا تفعلون هنا أيها الأشقياء ...!؟

ارتفع فجأة صوت خشن من طرف الحديقة والتفتوا مسرعين وشاهدوا رجلاً ضخماً يرتدي بذلة رسمية ... كان وقت الفرار قد حان وسرعان ما كان الثلاثة يركضون باتجاه الفتحة ... على حين وقف الرجل الضخم تحت شرفة المرأة وقال لها بعتاب غاضب:

- ما هذا الذي فعلتيه ... كان يجب أن تحذريني فور اكتشافك أمرهم ... سيخبرون الجميع بما شاهدوه وسيغضب سكان الضاحية وسيشتكون للسلطات وتأتي الصحافة ولن يهدأ بالهم حتى يطردونا من هنا.

هزت كتفيها العاريتين وقالت بلا مبالاة:

- لا تخف لن يخبروا أحداً بما شاهدوه ...سيعتبرونه سرهم الخاص وسيعطيهم هذا شعوراً بالتفوق ... هكذا ديدن الصغار.
- يا سلام!!؟ ... بيننا طبيبة نفسية ولا ندري.
- هذا سري الخاص الذي يشعرني بالتفوق عليكم أيها الحمقى.

وضحكا في استمتاع وهم يتأملون الصبية الذين بدأوا يتسللون مسرعين من المكان .

.....

- هه هه هه ... أين أنت يا رامي؟

- خلفك يا أحمق ... ألا تسمع صوت لهاثي!؟
- حسبتك علي ... أين هو يا ترى؟

توقفوا عن الركض وأخذوا ينادونه عدة مرات وسمعوا بعدها صوتاً ضعيفاً من مكان قريب ... اتجهوا نحوه وأضاءوا الكشافات فشاهدوا علي مرتمياً على الأرض يبكي من دون انقطاع فأمسك رامي يده وأخذ يرفعه قائلاً بخوف:

- ليس هذا وقت البكاء يا غبي ... هيا أسرع بالركض قبل أن يمسكوننا.

سأله مهند وهو يلهث:

- هل أنت متأكد أننا نركض بالاتجاه الصحيح.
- نعم متأكد ... كان القصر أمامنا وهو الآن خلفنا.

كانوا قد وصلوا للطريق فتابعوا ركضهم حتى النقطة التي بدأوا منها وبعد دقائق وصلوا لجدار موقف الحافلات وأخذوا يتسلقونه وقفزوا نحو الجانب الآخر الذي انتشر به عدة أشخاص ما إن

رأوهم حتى أسرعوا نحوهم وهم ينادونهم بأسمائهم ... فقال لهم رامي بحدة :

- إياكم أن تخبروهم بما رأيناه ... لقد ذهبنا للعب وراء السور وتهنا وتمكنا من العودة الآن ... هل تفهمون!؟ ... سيكون إنتقامي مريعاً ولن تذوقوا طعم الراحة أبداً...

بعد أيام من تلك الليلة وفي وقت الظهيرة وقف الصبية الثلاثة في مكان تجمعهم المعتاد أمام باب النجاة ... كانوا يطرقون برؤوسهم نحو الأرض في صمت ... غمغم مهند بصوت خافت:

- لقد كانت علقة أليمة حقاً.

هز البقية رؤوسهم في إحباط وقال علي بصوت مبحوح:

- لم ينتظروا حتى دخولنا لمنازلنا ... لقد تفرج علينا الجميع وخصوصاً الفتيات ثقيلات الظل ... لقد سخر الجميع منا.

قال رامي وهو يلوح بيده في غضب:

- صبراً سيدفعون الثمن جميعاً ... المهم أننا لم نخبر أحداً عن سرنا.

ثم نظر بحدة للبقية وسألهم بنبرة تهديد:

- هه ... أليس كذلك؟

تمتم مهند وعلي بعبارات الموافقة وقال مهند:

- هل سمعتم ما جرى البارحة؟ ... لقد وجدوا جثة رجل مقتول بين الأحراش ... وتبين أنه أحد اللصوص المطلوبين ... لقد افترضوا أن هناك شجاراً دار بينه وبين شريكه أدى لمقتله ... ألا يبدو هذا الكلام مألوفاً.

هز رامي رأسه قائلاً:

- لا بد أنهم لصوص معمل السجاد ... لكن من قتل من يا ترى؟
- لن نعرف الجواب أبداً ... الطريف أن الشرطة شاهدت حزاماً صغيراً مربوطاً حول إحدى الشجيرات هناك ... هل يذكرك هذا بشيء يا رامي؟

رد رامي بغيظ:

- نعم أيها الأحمق يذكرني ... أفكر أن أذهب وأستعيده من الشرطة وأوسعك جلداً به.

أخذوا يضحكون بصوت خافت على حين قال علي وهو يتلمس أجزاء من جسده:

- حتى الآن لا أستطيع النوم بهناء من جراء ما حصل.

تحسس مهند هو الآخر جسده وقال بخفوت:

- ولا أنا أيضاً.

ساد الصمت لبعض الوقت ثم قال رامي فجأة:

- صحيح أننا لسنا متأكدين أننا حقاً رأينا كورونا ولكن مغامرتنا لم تضع سدى واكتشفنا شيئاً آخر.

سكت قليلاً فنظروا له في تساؤل فتابع قائلاً:

- الكبار هم أشرار وسيئون أكثر من هذه الكورونا بكثير.

هزوا رؤوسهم موافقين ثم استداروا عائدين نحو باب النجاة.

البصّاقين

تنهد هشام بعمق ثم أطلق زفيراً طويلاً وهو يتأمل الطريق بتوتر ...

كان الليل قد حلَّ على المكان تاركاً وراءه زوايا غامضة تزخر بشتى الاحتمالات ... تلك البقع المظلمة التي قد تكون شيئاً ما أو لا تكون أي شيء على الإطلاق

مد يده الى جيبه بحركة تلقائية ليلتقط علبة السجائر ثم أعادها في خيبة ... لقد اضطر الى تركها في المنزل فلم يكن يريد سماع محاضرة أخرى من هبة عن

التدخين والأمراض والشيخوخة المبكرة وما شابه ...

كان يرسم ابتسامة عريضة على وجهه كلما سمع نصائحها تلك ولكنه في الحقيقة يغضب من مجرد فتح ذلك الموضوع ويشعر أنه مجرد ابتذال منها لا أكثر لتصور له أنها تخاف على صحته ...

تخاف على صحته!!

لو كانت كذلك فعلاً لما سمحت له أن يعود إلى بيته في هذا الوقت ... نظر الى ساعته في توتر ... تأخر الوقت فعلاً ولا حيلة له فيما جرى ...

لقد وصل لبيت خطيبته كعادته مبكراً وكان الوقت يمضي كما في كل مرة ... والدها الجالس أبداً أمام التلفاز وكأن شخص ما قد أوصاه أن يراقب مذيع الأخبار خوفاً من أن يهرب ولا يذيع تلك النشرة التي يعيدها بإصرار كل ساعة

هو وهي يجلسان في ركن بجانب باب الشرفة يتبادلان أحاديث خافتة بينما تطلّ عليهما أمها كل

فترة لتجلب المشاريب ولتطمئن أن كل شيء على ما يرام ... أخوها الصغير بوجهه الذي يظهر فجأة من وراء باب غرفته ناظراً لهما بضحكة شيطانية ... لابد أنهم يتركونه بمفرده في المنزل في أوقات عرض فيلم السهرة والوغد يحسبهم في فيلم عاطفي ملتهب وينتظر مشهد القبلة في شغف..

عائلة نمطية جداً كما يبدو وزيارة خطيب لخطيبته كما أي زيارة أخرى ... للدقة كانت هكذا معظم الوقت قبل أن يضع الأب يده على صدره ويبدأ بأنين مروع ... أسرعا نحوه بعد أن امتلأ المكان بعويل الأم ... لم يضع الوقت واتصل بالإسعاف ... مرّ وقت ثقيل قبل أن يأتوا ويأخذوه ... لم يسمحوا لأي أحد بالذهاب معه رغم إلحاح زوجته التي قاطعها الممرض وهو يقول بحسم:

- لا مكان لك في المشفى ولسنا بحاجة لمرضى جدد ... البلاوي التي عندنا تكفي وزيادة.

وغادروا البيت بسرعة ...

جلست هبة وأمها وانخرطوا في نوبة بكاء طويلة ... قضى وقتاً يحاول تهدئتهم ثم نظر للساعة ... كانت تقترب من الثامنة ... ألاعيب الوقت التي لا تنتهي ... ودعهم بسرعة ثم نزل إلى الشارع وها هو يقف وسط الظلام يرمق الفراغ الذي خلفه الوباء والخوف وحظر التجول الذي بدأ منذ ساعة ...

استدار ونظر إلى شرفة منزل هبة ... ترى هل يعود ويقضي الليلة عندهم!؟ ... هل هذا لائق مع عدم وجود رجل آخر في المنزل وهل هم في حالة نفسية تسمح لهم باستيعاب الظروف؟؟

تردد قليلاً ثم حسم أمره وتابع المشي في إصرار ... ستكون هناك مشاكل مع الشرطة لو أمسك به أحدهم خارج المنزل في وقت الحظر ... سيشرح لهم ظروفه وقد يقتنعون ... ولكن ماذا عن أولئك المختبئين في مكان ما في الشارع !؟ المنتظرين

لعاثر الحظ الذي سيمر بقربهم ... هل هم موجودون فعلاً أم أن الأخبار مبالغ بها!؟ ...

أخذ يسرع الخطا محاولاً طرد تلك الأفكار السوداء من عقله ... أخرج مطواة صغيرة من جيبه بينما عيناه لا تكفان عن التحرك يمنة ويسرة ... إن مات عمه والد هبة فسيضطر للانتظار أشهراً إضافية ليتجرأ على فتح سيرة الزفاف مع هبة وأمها ... وإن نجا هذه المرة فسيستعجله في تقديم موعده ... سيوافق العجوز حتماً لأنه يريد أن يطمئن على ابنته ويريد أن يفرح بها قبل أن .....

فجأة اكتسى المشهد أمامه بظلام كثيف وسمع عبارات الخيبة ترتفع حوله ... لابد أنها الكهرباء اللعينة ... إنه فعلياً لا يبصر شيئاً حوله ... مد يده داخل جيبه وأخرج الموبايل ورفعه وهو يضغط على زر التشغيل ... كان هذا عندما شاهدهم يتجهون نحوه في هدوء ...

.....

فتح عماد باب الثلاجة ووقف يحدق ساهماً في محتوياتها ... كان يشعر بجوع أليم منذ لحظة استيقاظه ... ذلك النوع من الجوع الذي لا يدفعك لاشتهاء أي شيء ... تفحص الأرفف مراراً بلا جدوى ثم صفق باب الثلاجة التي اهتزت قليلاً ثم بدأت تأزز برتابة ...

عاد الى الصالة وجلس أمام شاشة الحاسب وأخذ يقرع الأزرار بسرعة ثم ضغط على زر الإدخال ... انتظر قليلاً ثم تراجع للوراء وأغمض عينيه قليلاً وهو يحرك رأسه بحركة خفيفة ثم اتجه نحو النافذة وأخذ يتأمل الشوارع البعيدة والقريبة ... طالعه السكون المستفز المعتاد ... تذكر تلك الأيام التي لم تصبح قديمة جداً عندما كان الزحام والحركة هي الهواية اليومية لتلك الشوارع ... الدم الذي جف من عروقها وغدت أشبه بجسم هامد لا حياة به إلا من خطوات قليلة خائفة ... إيقاع الحياة الذي انتهى

ببطء بإرادة الناس تارة وبغير إرادتهم تارة أخرى ... صار الخروج للشارع مجازفة قد تودي بك للذهاب إلى المشفى أنت وعائلتك ... الذهاب الذي قد لا ترجع بعده إلى البيت أبداً ... الأيام التي ستقضيها وحدك أنت والفايروس الذي لم يكف عن الصمود والتوحش ...

العالم الخارجي الذي لم يعد ذلك الودود الممتلئ بالعرق وصيحات الأطفال المرحة في الصيف والسير تحت المطر والجلوس في المقاهي وروائح الدخان والشيشة في الشتاء .

في تلك اللحظة علت أصوات الصياح والعويل أرجاء المبنى وتردد صداها بصوت مرعب بينما ارتفع صوت حاد يحذر السكان من مغادرة بيوتهم ... أسرع عماد ونظر من عين الباب وبدا له الطابق خالياً من البشر ... جاءه صوت زوجته يسأله بتوتر :

- ماذا يحدث في الخارج؟
- يبدو أنهم يمسكون أحدهم.

اتسعت عيناها وهمست:

- أحدهم!! ... في المبنى هنا !؟.
- هشش ... ليس هذا وقت الكلام ...

تردد صوت ذكوري يصرخ بقوة مع صوت احتكاك غريب ثم ساد الصمت عدا صوت صياح مكتوم.

- لقد وقع بيدهم.

استدار ونظر الى وجه زوجته العابس ثم عاد ونظر من خلال عين الباب ورأى المصعد يهبط متجهاً الى الطابق الأرضي.

- يبدو أنه من سكان أحد الطوابق العليا
- من يا ترى!؟
- سأسأل شريف ... قد يكون أحد ساكني طابقه

ضغط على زر الاتصال في هاتفه وظهر أمامه بعد ثوان وجه شريف المتجهم ... قال له بسرعة:

- صباح الخير ... من هو؟

ابتسم شريف بسخرية قائلاً:

- حتى لو كنت مراسلاً صحفياً كنت سترحب بي أكثر من ذلك ... بالمختصر إنه صلاح ... لقد أمسكوه بالجرم المشهود ... الكاميرا صورت كل شيء ...

ساد بعدها صمت قصير ثم قال عماد بدهشة:

- جارنا صلاح!! هل أنت متأكد!؟ غريب ... لقد كان طوال عمره محترماً ولم يؤذي أحد في حياته ...

نفخ شريف في ضيق وقال:

- يبدو أن الملل أصابه وقرر أن يصبح مؤذياً ... قلت لك أنهم أمسكوه متلبساً ... لقد لاحظ أبو صالح أن المصعد به آثار خفيفة لمحاولات عدوى لذلك أزال الكاميرا من المصعد وأخبر الجميع أن إصلاحها سيستغرق أياماً ... وصدق الأحمق هذا ودخل الى المصعد وبدأ يبصق وينفخ ويلحس الأزرار والمقابض بينما كانت

الكاميرا التي وضعت في مكان خفي تسجل ما يحدث في صبر ... لقد أخذته الشرطة منذ قليل ... وضعوه في كيس العزل الأصفر ورموه كشوال البطاطا في العربة ومضوا.

إبتلع عماد ريقه في صعوبة وغمغم:

- من كان يصدق أن صلاح يستطيع فعل هذا ... كان وديعاً وبالكاد تسمع صوته ...
- لا أحد طبعاً ... ولكنها الكورونا يا صديقي ...
- هل هو منهم؟
- أتقصد من البصّاقين؟؟ ... لا أحد يعلم ... قد يعترف وقد يدعي أنه يمارس هذا النشاط كهاوي ... لا أحد يتمنى أن يطاله انتقامهم حتى وإن كان مهدداً بالموت.
- قد يشفى ولا يموت.
- هنا مربط الفرس ... لو مات سيستريح ولكن إن شفي فلن يتركوه ... هناك طرق أخرى للموت غير الكورونا ... عموما لا تغادر

المنزل اليوم حتى تنتهي فرق التعقيم من عملها ... الهواء في الخارج أصبح ملوثاً بالتأكيد بعد كل هذا الصياح ... وداعاً الآن.

تبادل عماد نظرات صامتة مع زوجته ثم جلس على الأريكة وغرق في شروده ... شغلت زوجته التلفاز وأخذت تقلب المحطات بتتابع استرعى انتباهه فقال لها ساخراً:

- دعكِ من هذا ... حتى لو وصلت للمحطة الأخيرة فسيعود ليبدأ من جديد.

نظرت له وهي تفرك يديها بعصبية وقالت:

- هل تعتقد حقاً أنه منهم؟؟
- وما الفارق ... حتى لو لم يكن فهو يمارس ما يفعلونه تماماً.

ردت عليه بضيق:

- الفارق أنه لو لم يكن فلن يسعى لتجنيد شخص ما ... لو كان منهم وفعل ذلك قبل أن يمسكوه فلن نكون بأمان ... قد يكون

أحد الجيران وقد نصادفه على الدرج أو في المصعد.

نظر له بطرف عينه ثم قال:

- حتى لو لم يكن منهم فهذا لا يعني أي شيء ... قد ينجحون بتجنيد أي شخص في هذا المبنى أو غيره ... إنهم في كل مكان تقريباً يمارسون نشاطهم في الخفاء ويتظاهرون بأنهم مواطنين صالحين إلى أن يقبض عليهم أو تظهر عليهم الأعراض ويدخلون المستشفى

غمغمت زوجته قائلة

- الذي يثير جنوني أولئك الذين يشفون منهم ثم يعودوا ليصبحوا من البصّاقين بعد أن يتعمدوا إصابتهم بالعدوى مرة أخرى .
- الحاجة إلى المال تفعل هذا وأكثر ... هناك من أصبح هذا الأمر عنده أسلوب حياة وهناك من هو بحاجة للمال بعد أن

فقد عمله ... هم أشبه بالحركات السرية التي لا ينقصها التمويل من جهات مجهولة ... حركة سرية بدأت في أوروبا ... هل تذكرين بيانهم الأول وذلك الذي ظهر مرتدياً قناع ثعلب ... وهدفهم في التخلص من التراكم البشري وأن علينا ترك الوباء من دون مقاومة وإلا فسوف يساعدوه هم بإكمال مهمته ... لم يكتفوا بمجرد التهديد وبدأنا نسمع عن انتشارهم حول العالم ... هناك كثير من العقول والجيوب الجاهزة ... والنتيجة أنهم أصبحوا في كل مكان ... يضعون الكمامات التي تخفي ملامحهم ويقفون في الأماكن شبه الخالية أو يتظاهرون بأنهم باعة أو ينتظرون شخصاً ما ... يصيبون الناس بالعدوى ويختفون بعدها ... ضحيتهم المفضلة هم العجائز والأطفال الذين برغم قوانين حظر التجول مازالوا

باستطاعتهم العثور عليهم... هناك المشردون ومن لا عائلة لهم .

حدقت في شاشة التلفاز في صمت ثم غمغمت:

- أكثر ما يثير حزني هم الصغار ... محبوسين دائماً في البيوت ولا يستطيعون اللعب في الخارج ... لم يعودوا في مأمن من كورونا كما في السابق وأصبح الموت يخطفهم هم أيضاً ...حتى الحدائق الخاصة لم تعد بمأمن من البصّاقين الذين يمارسون قذارتهم من شرفات منازلهم ... لن يكون شخصاً طبيعياً من ينشأ بهذه الظروف.

هز عماد رأسه بأسف وقال:

- ذكريات كثيرة تضيع منهم ... أطفال البيوت المغلقة الذي أصبحت شبابيك المنزل حدائقهم ... هل تذكرين لعبنا ونحن صغار في الحديقة المجاورة لمنزل عائلتك؟

التفت مبتسمة نحو عماد قائلة:

- حقاً كنا أطفالاً مشاغبين ولم نكن نكف عن اللعب وعمل المقالب.

ابتسم عماد بدوره وسألها بخبث:

- هل تذكرين اعترافي لك ذلك الصباح!؟

احمر وجهها وقالت متلعثمة:

- الجميع كان مشغولاً بالعيد وتحضير الطعام وحضرتك تقف على الشرفة ولا تبعد نظرك عني ثم ناديتني و ...

توقفت عن الكلام وسكتت فتابع عماد بعدها قائلاً:

- لن أنسى مطلقاً تعابير وجهك المندهشة وأنا أناديك بصوت هامس وكيف اقتربت من سور الشرفة وأملت رأسك نحو الأمام لتتمكني من سماعي وأنا أقول ...

قاطعته قائلة:

- أنا أحبك ... سنأتي لطلب يدك هذا المساء فهل تقبليني.

ضحك ضحكة خفيفة:

- لن أنسى أبداً وجهك المضرج بالحمرة وخطواتك المتعثرة وأنت تعودين مسرعة نحو المطبخ ... لقد خشيت عليك من السقوط.

بادلته ضحكه قائلة :

- لم أكن لأتوقع أن تفعل هذا على الإطلاق ... الدنيا عيد والضيوف يملئون المنزل وأنا غارقة في الطبخ وسكب الصحون.

إقترب وجلس بجانبها وهمس لها:

- لم يكن ذلك العيد وأي عيد آخر ليستحق هذا اللقب من دونك.

إبتعدت عنه قليلاً وقالت:

- لم أكن أعلم أن الحجر المنزلي سيجعلك رومانسياً بهذا الشكل.

ساد صمت ما لبرهة من الزمن ثم إرتفع رنين الهاتف فالتقطه عماد وأخذ يستمع ويهمهم ثم قال:

- سآتي مادام الوضع كما أخبرتني ... متى ستأتي العربة لتأخذني؟

استمع قليلاً ثم عقد حاجبيه قائلاً:

- لا أستطيع ... قد يكون سائق عربة الأجرة منهم.

سكت منتبهاً لفترة ثم قال:

- سأرى ما يمكنني فعله ... سأتصل بك إن لم أتمكن من الحضور.

وأنهى المكالمة وهو يتمتم بكلمات غاضبة.

سألته بفضول:

- ما الحكاية!؟

أخذ ينفخ بانزعاج وقال:

- أتت بضاعة جديدة بشكل مفاجئ هذا الصباح ... كان من المفترض أن تأتي الاسبوع القادم وهم بحاجة لي لكي أشرف على إدخالها للمستودع ... المشكلة أن عربة

الشركة في الصيانة ولن تأتي لأخذي كما كل مرة.

- ماذا ستفعل إذن؟ ... أنت لا تملك عربة وأي وسيلة نقل عامة ستعرضك للخطر.

حدق فيها ساهماً وقال بخفوت:

- لا أدري حقاً ... صاحب عربات الشحن يستعجل التسليم وستحدث مشكلة كبيرة لو كان هناك نقص ما ... لا مفر من الذهاب.

قالت بعصبية:

- ولكن كيف!؟

فكر قليلاً ثم قال:

- أحد أقرباء شريف يعمل سائق عربة أجرة ... سأتحدث معه وأطلب منه إعطائي رقم هاتفه.
- وماذا لو كان منهم!؟

هز كتفيه قائلاً:

- لن يجازف بكشف هويته ... لا تنسي أنهم حذرون ويخفون ملامحهم دائماً ... لو حاول تجنيدي فسيتعرض لانكشاف أمره وسيقبض عليه.

صمتت ثم قالت بتوتر:

- ما زلت لا أشعر بالارتياح ... الخروج في هذه الظروف سيصاحبه ألف احتمال مرعب.

تنهد قائلاً:

- ليس باليد حيلة ... لا تقلقي سأكون حذراً ولن يحدث مكروه ان شاء الله.

تأمل عماد العربة وسائقها بنظرة طويلة ... كان السائق يضع كمامة تخفي أجزاء كبيرة من وجهه كما يفعل هو تماماً ... لو صادفه في يوم ما بدون كمامة فلن يعرفا بعض مطلقاً ... تذكر تلك الحادثة الطريفة عن الشخص الذي مشى مع زوجته في سوق ما واكتشف بعدها أنها ليست زوجته وأنها

فقط امرأة أخرى تلبس مثلها تماماً ... تلك الأيام الباسمة التي كانت تحوي أسواق خضار شعبية.

فتح باب العربة الخلفي وجلس بعد أن ألقى التحية وأعطى العنوان للسائق ... تحرك بعدها العربة بعد أن ساد الصمت ... لم يكن يرغب بفتح أي حديث معه ... قد تكون كمامته من النوع الرخيص غير المحكم عندها سيصيبه بعض اللعاب الذي سيتناثر من فمه ... فلنأمل ألا يكون من المتحمسين الذين يعيشون لوحدهم ووجد فجأة فرصة ليتكلم مع أول شخص يراه أمامه ...

على أنه بقي صامتاً طوال الطريق ... يبدو أنه يبادله نفس المخاوف ... هذا شيء جيد والخوف هنا منجي ولا شك ... برغم ذلك بقي عماد متيقظاً وهو يمسك بمطواة صغيرة بشدة ... لن تمضي الأمور على خير لو حاول السائق فعل أي شيء ما ...

عندما توقفت العربة أمام باب مستودع الشركة خرج عماد منها بسرعة وأخذ يتنشق الهواء البارد

بعمق ... كان قد ترك الأجرة على المقعد الخلفي كما جرت العادة ... راقب العربة وهي تبتعد بهدوء ثم اتجه نحو الداخل ...

أشار للحارس بالتحية ثم سار عبر الممر الطويل الذي ينتهي بمكتب أمين المستودع الذي لمحه من بعيد وخرج ووقف ينتظره ... تبادلا التحية سريعاً وسأله عماد باقتضاب :

- هل وصلت عربات النقل؟؟

أجابه وهو يسيران سوية باتجاه ساحة المستودع:

- من نصف ساعة تقريباً ... الحمّالون القادمون مع العربات ينتظرون في الخارج ... وهناك حارسين مسلحين يقفان هناك أيضاً كالعادة.

كانت أربع عربات نقل ضخمة تنتظر في الساحة على حين جلس الحمّالون تحت شجرة في إحدى الزوايا يدخنون ويتبادلون الأحاديث ووقف

الحارسان على جانبي باب المستودع الضخم يتأملان المكان في تجهم ...
أشار أحد الحمّالين إلى بقية الجالسين نحوهما ووقف مع البقية واتجهوا نحو العربات وبدأ بعدها تفريغ الحمولة.
أخذ الوقت يمضي ببطء ... كان عماد يقف أمام شاشة كبيرة يراقب البيانات التي يدخلها أمين المستودع ويقارنها مع كمية البضائع التي يدخلها الحمّالون للمستودع ...
لم يكن عماد مرتاحاً لهذه المهمة لأنه مضطر للمجيء إلى المستودع كلما أتت بضاعة جديدة بخلاف بقية محاسبي الشركة الذين لم يأتوا الى هنا منذ فترة طويلة ... هناك من عمل في الشركة وفُصل من عمله من دون أن يرى مقرها حتى ...
لقد مضى وقت طويل حقاً منذ بداية هذا الوباء ...
رفع رأسه وتأمل الوجوه عديمة الملامح المغطاة بالكمامات ثم تنهد في ضيق وتابع عمله.

كانت الشمس قد بدأت تغرب عندما انتهى كل شيء ... جمع أمين المستودع أوراقه وذهب نحو مكتبه وبدأت العربات تستعد للرحيل ...

أطفأ عماد الشاشة واتجه داخل مبنى الشركة باتجاه دورات المياه ... تخلص من الكمامة وغمر وجهه بالصابون وأخذ يفركه بقوة ...

"هل سمعتُ صوتاً ما !؟"

... توقف وأخذ يصغي قليلاً ثم تابع تنظيف وجهه وبدأ يغسله بالماء عندما أمسك شخص ما بكتفه بقوة وطرحه أرضاً ...

لثوان وبفعل الصدمة لم يعد يشعر بأي شيء ثم وجد نفسه مستلقياً على الأرض وقد حشرت قطعة قماش قذرة في فمه ووقف أربعة من الحمّالين ينظرون له في صمت ثم مد أحدهم يده وأخرج قطعة القماش ولوح بعدها بسكين عملاقة وهو يضع سبابته أمام فمه ... رسالة بليغة جداً ... ثم غادروا المكان بسرعة.

عندما استند عماد على حافة المغسلة كان يشعر بالألم ينخر جسمه بالكامل ... لم يكن يدري أهو بفعل السقطة أم بفعل الرعب مما جرى وسيجري ... وقف وتقيأ بقوة ثم أخذ يغسل فمه ووجهه في جنون ... ثم تمالك نفسه وأخذ ينظف جسمه من آثار السقطة ووضع كمامة جديدة ... شعر بعدم جدوى وضعها ولكنها ستخفي على الأقل ملامح الصدمة والخوف المرتسمة على وجهه والتي ستكون مثيرة للشك ... لم يكن ذلك الحمّال بحاجة لأن يهدده لكي يلتزم الصمت فلو علمت إدارة الشركة بما جرى ستفصله قبل أن تبدأ أعراض الكورونا بالظهور ... القوانين صارمة بهذا الصدد ... سيكون بإمكانهم فصله قبل ظهور الأعراض ولن يستطيعوا ذلك بعدها ... لو شفي سيعود لعمله مجدداً بحكم القانون ... وقتها لن يكون لديهم أي دافع لطرده ... هذا لو شفي أساساً.

عاد أدراجه نحو المستودع محاولاً أن يكون طبيعياً ... كان أمين المستودع واقفاً ينتظر هناك ... عندما وقف قال مندهشاً:

- أين كنت!؟ ... لقد حسبتك غادرت المبنى وكنت على وشك المغادرة أنا الآخر ولكني سألت الحارس وأكد لي أنك لم تغادر بعد.

أجابه عماد وهو يشير للخلف:

- كنت في دورة المياه ... أعاني من المثانة الخجول كما تعلم.

هز أمين المستودع رأسه في اقتناع وأخذ يطفأ الأضواء استعداداً للمغادرة

سأله عماد بشكل حاول أن يبدو عابراً:

- هل غادر الحمّالون والعربات؟

أجابه وهم يغلق باب المستودع:

- أجل ... منذ دقائق ... أناس طيبون حقاً ومجتهدون بعملهم.

طيبون!!!!

لو يدري مقدار الطيبة التي عاملوه بها داخل دورة المياه ...

- كيف ستعود الى البيت؟
- اتفقت مع سائق التاكسي الذي أقلني الى هنا أن يأتي ويأخذني مرة أخرى ... سأتصل به الآن.

تنحنح في حرج وقال:

- كنت أود أن أوصلك ولكن ...

قاطعه عماد قائلاً:

- لا داعي لذلك ... شكراً لك ...

وودعه واتجه مسرعاً نحو الخارج ...

على الطرف الآخر من الشارع وأثناء انتظاره للتاكسي كانت حقيقة الموقف قد بدأت تسلل ببطء الى ثنايا عقله ... قطعة القماش القذرة تلك ... قطعة القماش التي لم توضع في فمه بغرض خطفه

كما يفعلون في أفلام الحركة ... لم يكونوا ليستطيعوا فعل ذلك ... تلك العيون الجامدة التي كانت تحدق به وكأن الأمر قد تم وانتهى ...

لم يكن بحاجة لكثير من الخيال لكي يعرف ماذا كانت تحوي قطعة القماش تلك ... الأمر واضح جداً ولم يكن الأمر بحاجة لعناء رسم صورة ذلك الفيروس التاجي عليها ...

ترى هل أصبت بالعدوى!!؟

أخذ هذا السؤال يقرع جنبات عقله ويتمدد حتى شعر بأن قدماه لم تعودا قادرتين على حمله وأنقذه وصول التاكسي وتوقفه أمامه ... فتح الباب وارتمى داخله في إرهاق ... سأله السائق عن وجهته فأجابه بصوت مرهق:

- نفس المكان الذي أخذتني منه.

أثناء الطريق كان عماد يتأمل السائق بنظرة جانبية ... كان يخشى أن يهاجمه في الصباح عندما أقله للعمل والآن صار هو مصدر الخطر الحقيقي ... ترى

ماذا سيفعل لو عرف أن مصاباً بالعدوى يجلس على المقعد الخلفي في عربته!؟ وهل سيحميه فتحه لكل شبابيك العربة!؟

انتابه دوار مفاجئ فوضع يده على جبينه وأغمض عينيه ... تلك الخواطر السوداء المتعلقة بما قد يجري في الأيام القادمة كانت غير قابلة للاحتمال بالنسبة له ... الشعور بأن الحياة كانت على ما يرام وتغير كل شيء بهذه البساطة والعبثية يثير جنونه ... قطعة قماش قذرة في الفم لا أكثر وسيشكل وجودك خطراً على أحباءك وكل من حولك ... وقد تخسر كل شيء بعدها ... قطعة قماش قذرة ولكنها أقل قذارة ممن وضعها في فمه.

توقفت العربة أمام منزله فنزل بتثاقل واتجه إليه بخطوات بطيئة.

عندما انتهى من رواية ما جرى له حدقت به زوجته وهي تغلق فمها بيدها كان لايزال يضع الكمامة ويقف في زاوية الغرفة ... تابع كلامه قائلاً:

- سأغلق باب غرفة الضيوف على نفسي وسأعمل هناك ... سأعتبر نفسي مريضاً من الآن ولن أدع أحداً يقترب مني ... وبعد أسبوع على الأكثر سيتضح كل شيء.

انهمرت الدموع من عينيها في صمت فابتسم مشجعاً لها وقال :

- لا تبتئسي ففي النهاية قد لا أصاب بالعدوى ... هناك من تعرض لأكثر من هذا ونجا وقد تكون مناعتي أقوى مما أعتقد.

مسحت دموعها وسألته بصوت متحشرج :

- هل هم من البصّاقين؟

هز رأسه قائلاً:

- نعم في الغالب ... ما فعلوه معي يشبه ما سمعناها من الأخبار والمعارف.
- إذا اتصلوا بك فلا ترد عليهم ... ابق في المنزل ولا تغادر أبداً.

أطلق ضحكة متعبة وقال:

- البصّاقين لهم أتباع في كل مكان وقد أضطر للذهاب للمشفى وعندها سأقع تحت رحمتهم وسينتقمون مني ... قد يأتون الى هنا ويهاجموننا ... هم سفلة ولا أخلاق لهم وما فعلوه بي يشي بذلك بشكل واضح جداً.

جلست منهارة على الأريكة وقالت وهي تنتحب:

- إذن ماذا سنفعل!؟
- لن نفعل شيئاً ... سأعزل نفسي عنكم ولنرى ما سيحدث.

.....

انطلق صوت تنبيه الهاتف مرتين قبل أن يصمت تماماً ... فتح عماد عينيه بصعوبة ... كان الوقت لايزال مبكراً لذلك ساعد السكون المخيم حوله في جعل صوت التنبيه عالياً ... تأمل تفاصيل غرفة الضيوف الغارقة في الظلام ثم التقط الهاتف ونقر

على شاشته ... هناك رسالة جديدة من حسابه بأحد مواقع التواصل ...

- اليوم الساعة السابعة صباحاً عند المبنى السكني قيد الإنشاء ... الحمّالين.

رسالة بليغة جداً ... فكر وهو ينظر بشرود لشاشة الهاتف ... لقد أنهوا رسالتهم بتلك الكلمة لكي يتأكد أنها ليست من تلك الرسائل العابثة التي انتشرت بعد ظهور البصّاقين وأنه المعني بها بالتحديد ...
ماذا سأفعل الآن؟
أغمض عينيه وهو يفكر ... لو أخبر زوجته ستمنعه من الخروج ولو لم يخرج ستتحول حياته لسلسلة لا تنتهي من الخوف ... وحتى لو نجا من العدوى فلن يستطيع الخروج مرة أخرى عندما تأتي البضائع الى مستودع الشركة ... سينتظرونه في كل زاوية وقد ينتهي به المطاف جثة مرماة في أحد الأركان ...

يموت هو ليخاف غيره ... يبدو الفيروس أكثر رحمة بمراحل ... سيعطيه على الأقل أملاً ما في النجاة ... لا بد من الذهاب ...

هذا ما كان يفكر به وهو يرتدي ثياب الخروج بهدوء ويتسلل بعدها خارج المنزل ... وقف أمام المبنى قليلاً وتأمل المكان حوله ... الشوارع التي أدمنت الخلو والصمت ... استنشق الهواء في جشع وأعاد وضع الكمامة ثم سار نحو وجهته في تصميم.

هناك أمام ذلك المبنى قيد الإنشاء وقف يتلفت حوله ... كان المبنى في آخر الشارع الطويل الذي يقع منزله في بدايته ... هو قيد الإنشاء منذ زمن وغالباً سيظل هكذا لفترة طويلة ... لن يجد صاحبه في هذه الظروف من سيشتري لذلك أوقف العمل به في انتظار ظروف مستقبلية أفضل

وقف متململاً ينتظر حدوث شيء ما ...

فجأة سقط حجر صغير بجانبه فرفع رأسه ووجد من يشير له من نافذة بأعلى طابق في المبنى ...

عندما وصل هناك كان بانتظاره عدة رجال يضعون كمامات تغطي معظم وجوههم مع نظارات شمسية عريضة ... على حين وقف أحدهم بمنتصف الغرفة واضعاً يده اليمنى فوق اليسار على بطنه وكأنه صنم حجري ... كانوا أشبه بحشرات على هيئات بشرية ... بالنسبة لعماد لم يبدو هذا الوصف خارجاً عن الحقيقة.

تقدم أحد منهم إليه وألصق جهازاً صغيراً على رقبته ثم ضغط زراً ما ... ظل الجهاز صامتاً لبضع لحظات ثم انطلق أزيز خافت منه فعاد والتقطه ونظر له ثم التفت لشخص يقف بمنتصف الغرفة قائلاً:

- إيجابي ... لقد أصيب بالعدوى.

هز ذلك الشخص رأسه ثم التفت لعماد قائلاً:

- أعرفك عن نفسي ... أنا رئيس هذه المجموعة المتواضعة ... لا اسم لي طبعاً ولكن إن شئت سمني إكس ... أوصاني الحمّالون بالسلام عليك ... هم آسفون حقاً

على ما فعلوه بك ولكن كما تعلم لكل عمل جانب سلبي وهم متفانون حقاً ... الحمّالون الجوالون في الأنحاء هم المفضلون عندنا دائماً ... عموماً يجب أن تشكرنا على العدوى الجليلة التي قدمناها لك ... لن تعود خائفاً من التنقل لفترة لا بأس بها ... ستكون أنت الخوف نفسه والدنيا لك بطولها وعرضها.

نظر له عماد ببرود ثم قال له:

- هل أنت حقاً مهتم بالقضاء على التراكم البشري!؟ أنت بالأصل من مجتمع يشجع على ذلك.

ضحك إكس هازئاً وقال:

- تماماً ... أنا مع استمرار التراكم البشري ليبقى العمل مزدهراً ... تصور أن يأتي يوم وتنتفي الحاجة للبصّاقين ... هذه مصيبة بحد ذاتها ... أنا مهتم فقط بملأ جيبي

بالنقود ولتذهب كل هذه المنطلقات النظرية إلى الجحيم.

- وما فائدة أن تملأ جيبك وأنت ستموت بعد فترة وجيزة.

أشار إكس الى صدره باعتداد قائلاً:

- أتقصدني أنا!! لقد أصبت بالكورونا ثلاث مرات ودخلت المستشفى مرة وها أنا حي أرزق ... لقد مات الكثير من الرجال من حولي وبقيت أنا ...

وأشار إلى الكمامة التي يضعها على وجهه قائلاً:

- هذا القناع فقط لكي لا يتعرّف علي أحد وليس خوفاً من الكورونا ... عملياً أنا الكورونا نفسها.

وضحك قليلاً ثم اكتسا صوته بالجدية وهو يقول:

- ماذا الآن؟ هل ستنضم لنا؟ أنت مصاب بالكورونا فعلاً ولن تخسر شيئاً إضافياً ... ستعمل معنا طوال فترة الحضانة

وستتوقف بعد أن تبدأ الأعراض ... لن تستطيع بعدها بطبيعة الحال التحرك خارج المنزل ... سنعطيك مبلغاً لا بأس به ... الحياة أصبحت صعبة يا صديقي.

صمت عماد فعاد إكس وقال:

- سأعتبر أنك وافقت ... الحقيقة أنه لا خيار آخر آمن لك كما تعلم ... الفارق الوحيد لو رفضت أنك ستموت الآن أو خلال أيام لا فارق ... لو وافقت ستكون هناك فرصة لك للنجاة ... لو شفيت سيكون لك الخيار بعدها ... نحن نرحب بك دائماً.

ثم أشار بيده اليمنى لأحد الواقفين حوله قائلاً:

- سيعطيك هذا الأخ الفاضل كودك وسنذكره عندما نرسل لك التعليمات ... مطلوب منك أن تصيب اثنان بالعدوى ... أي اثنان لا فارق ... سترسل لنا معلومات أولية عنهم وسنتكفل نحن بالباقي ... لا أنصحك

بالتلاعب معنا أبداً فلم يتهمنا أحد من قبل بأننا لطفاء ... نحن ماهرون بالعدوى وبالانتقام أيضاً ... خذ كودك وانصرف الآن ...

.....

- لماذا لم تخبرني قبل أن تذهب!!؟

كان عماد يقف في منتصف الممر بينما كانت زوجته تقف في الطرف الآخر وهي تحدق فيه بغضب

- لابد أن أذهب بكل الأحوال ولم أرد أن تقلقي علي.
- ما فعلته خطأ فاحش ... ذهابك يعني أنك قبلت ضمنياً بشروطهم ... هل تريد أن تتسبب بالعدوى للأبرياء وتفعل مثلما فعل أولئك الحمالون الأنذال!؟

عقد عماد حاجبيه في غضب والتزم الصمت ... فتابعت قائلة :

- الحل المتاح الآن هو أن تختبأ في مكان مجهول بالنسبة لهم ... لقد تكلمت مع خالتي نجاح وشرحت لها ما حدث فعرضت أن تستضيفك ... هي تعيش وحيدة وبيتها كبير ... ستعطيك غرفة وستقيم معها.

هز عماد يده وقال معترضاً:

- هذا ليس حلاً ... قد لا يجدوني ولكنهم سيجدونك أنت والأطفال وسينتقمون مني عن طريقكم ... وقد أتسبب بالعدوى لخالتك العجوز.

هزت رأسها نافية وقالت:

- لقد استضافت أشخاص عديدون من العائلة لنفس السبب وهي معتادة على التعامل مع حاملي العدوى ... بالنسبة لنا فنحن فعلياً لا نخرج من المنزل مطلقاً ولن يجازفوا بالاقتراب من المبنى مع كل تلك

الكاميرات المحيطة به ... مكالمة سريعة وستملأ شرطة العدوى المكان.

ثم أشارت له بحزم:

- لا وقت لتضيعه ... املأ حقيبتك واذهب الآن ...

.....

تأمل عماد الغرفة التي سيقيم بها خلال الأيام القادمة ... كان واقفاً على عتبة الباب وعلى مسافة بضعة أمتار منه وقفت خالة زوجته وهي تنظر له بملامحها الطفولية نوعاً ووجهها المتغضن ... كانت قصيرة القامة ونحيلة جداً:

- هل أعجبتك الغرفة؟
- بالطبع يا خالة نجاح ... شكراً لك على استضافتي وأرجو المعذرة إن كنت قد تسببت لك بحرج.

هزت رأسها بقوة نافية ثم قالت بصوت مبحوح:

- لا أبداً ... كيف تقول هذا!؟ ... أهلاً وسهلاً بك ... لقد أتى العديد من الأحباء الى هنا وأغلبهم والحمد لله قد شفي وعاد لبيته

وابتسمت وتابعت:

- أعتبر هذه الغرفة فألً حسناً ... لقد كانت تقيم ابنتي هبة فيها قبل أن تتزوج ... هي مقيمة حالياً في المدينة المجاورة وتزورني بين فترة وأخرى ... سأتركك الآن لترتاح ... هناك حمام ودورة مياه ملاصقة للغرفة ... وهناك شرفة صغيرة ملحقة بالغرفة ... وضعت في الخزانة أدوية مسكّنة قد تحتاجها ... أخبرني إن احتجت أي شيء واعتبر نفسك في بيتك.

أغلق عماد الباب على نفسه وبدأ بتبديل ثيابه ... ثم اتجه للشرفة ووقف يتأمل المشهد حوله ... كانت الشرفة تطل على مبان عالية تليها حديقة واسعة ...

لاح له الميدان العام من بعيد ... تذكر الأيام الخوالي وقت كانت العربات تملأ أرجائه صباح ومساء ... كان الاقتراب منه في شهر رمضان قبيل الغروب يعني أنك ستفطر في الشارع لا محالة ...

أخذ يفكر وهو يتأمل العربات القليلة التي تمر هناك ... سيبقى هنا حتى يشفى لوحده أو يضطر للذهاب للمشفى ... عندها لن يضمن أن يكون أحد العاملين هناك واحد من البصّاقين وسيكون الخطر محسوساً ... ولكن كما قالت زوجته هو لن يستطيع أبداً التسبب في موت أي شخص مهما كان الثمن ... وعموماً لن يكون تبادل المعلومات بينهم محكماً لتلك الدرجة وقد لا يعرف ذلك العامل بالمشفى بأي معلومة تخصه ...

ستكون المشكلة الحقيقية عندما ينجو ويعود لمنزله ... سيطلب عندها من إدارة الشركة نقله لمنصب لا يتطلب الخروج من المنزل ... سيعرف كيف يقنعهم وسيقبلون في النهاية ...

عند هذا الحد شعر بالراحة فعاد نحو الغرفة واستلقى على الفراش وغرق في نوم عميق.

كان الظلام قد هبط عندما فتح عينيه ... تقلب ونظر حوله وشعر بتعب يعم جسمه ... لا بد أن أعراض الكورونا قد بدأت ... قام بتثاقل واتجه للخزانة وفتحها وأخذ يفتش عن الدواء بلا جدوى ... لمح درجاً صغيراً أسفل الخزانة فجذبه فشاهد به بضعة أوراق وقلم حبر... عندما أغلقه شعر بشيء منحشر خلف الدرج فأخرجه من مكانه ومد يده بحذر والتقط كيساً صغيراً يحوي علبتي دواء ... ها هو ذا ... أمسك الدرج وحاول أن يعيده لمكانه ولمح عندها مظروفاً صغيراً مخبأ أسفل الدرج .

التقطه وقلّبه بيده بشرود ثم فتحه ... كان يحوي عدة صورة لفتاة وشاب يقفون باسمين في أمكنة مختلفة ... يبدو أنها إبنة الخالة نجاح مع زوجها ... قدر أنها تعود لزمان الخطبة ... لابد أنهما التقطاها عندما كانا يتنزهان خلسة وخبأتها هنا ثم نسيت كل

شيء عنها ... بدأ يعيد الصور الى المظروف عندما لمح شيئاً جعله يتجمد ... أمسك صورة معينة وأخذ يحدق بها غير مصدق ... كانا يقفان على كورنيش البحر وهي تمسك بيده وتضعها على قلبها بحيث أصبحت يده واضحة تماماً

"واضعاً يده اليمنى فوق اليسار على بطنه وكأنه صنم حجري"

ذلك الخاتم الموجود على يد زوج ابنة نجاح مشابه تماماً للخاتم الذي رآه على يد إكس ... لقد لمحه وقتها وبقيت تفاصيله عالقة بذهنه لغرابتها

هل هو إكس حقاً!؟ ولكن الخالة نجاح أخبرته أنهما يعيشان في المدينة المجاورة ... فكيف يستطيع التنقل وممارسة نشاطه القذر هنا!؟

في تلك اللحظة سمع صوت دقات على باب الغرفة فأسرع وخبأ المظروف بجيبه واتجه للباب وفتحه ... كانت هناك طاولة متحركة موضوع عليها عدة أطباق وسمع صوت الخالة نجاح وهي تقول:

- هذا عشاءك وبالصحة والهناء ... لا تؤاخذني على عدم استطاعتي تناول الطعام معك.
- لا بأس يا خالة ... أنا خجل منك فلقد أتعبتك.
- لا يا ولدي أنت ضيف عزيز وأنا أحبك كمحبتي لزوجتك ... فقط ضع الطاولة خارج الغرفة عندما تفرغ من طعامك.

أخذ عماد يتناول طعامه بشرود وهو يفكر بما رآه في تلك الصورة ... ثم أمسك المظروف ومزق جزءاً كبيراً من غلافه وبعد أن انتهى أخرج الطاولة ونادى الخالة نجاح وقال لها وهو يلوح بالمظروف:

- معذرة يا خالة ولكني كنت أبحث عن الدواء ورأيته محشوراً خلف الدرج ووجدت معه هذا الظرف وبه بعض الصور.
- ضعه على الطاولة لو سمحت.

تراجع عماد على حين اقتربت الخالة نجاح وارتدت قفازاً وأمسكت بالمظروف وأخذت تقلب الصور وقد ارتسم الألم على وجهها ... سألها بحذر:

- لقد كان المظروف ممزقاً كما ترين ورأيت إحدى الصور ... هل هذه ابنتك مع زوجها.

هزت رأسها نافية ثم قالت بغصة واضحة:

- هذا هشام خطيب هبة ... كانت تحبه بشدة ولم تكن ترى أحداً حولها غيره ... في ليلة سوداء كان في زيارة لنا عندما أصيب زوجي بجلطة وجاءت عربة الإسعاف وأخذه المسعفون وحيداً للمشفى ... غادر بعدها خطيب ابنتي ولم نره منذ ذلك الوقت ... لم يعد يرد على مكالماتها وأرسل لها رسالة بعدها بأنه لا يريد أن يكمل معها ... مات زوجي بعدها وفقدت هي أباها وخطيبها ... لقد كانت أياماً سوداء ومضى وقت طويل قبل أن تنسى وتتابع حياتها.

ثم تنهدت وتابعت قائله:

- لقد حسبتها نسيته ... ولكن يبدو أنه حبٌ لا يموت بسهولة ... لم أكن أعرف بوجود تلك الصور ... يبدو أنها خبأتها هنا عمداً بعيداً عن الأعين ... لذلك كانت في كل زيارة تدخل وحدها لغرفتها بدعوى أنها تسترجع الذكريات الماضية ... كانت تقول الحقيقة فعلاً.

ثم أمسكت بطرف الطاولة وأخذت تجذبها قائله:

- لقد أكثرت عليك الكلام ... تناول دواءك ولا تتردد في طلب أي شيء مني ... من كل قلبي أدعو الله لك أن تشفى بسرعة.

ومضت بخطا متثاقلة ...

أغلق عماد الباب وعاد واستلقى على الفراش وأخذ يحدق في السقف وقلبه ينبض بقوة ... هذه فرصة لا تعوض لكي يتخلص من هذا المأزق الذي وضع

فيه رغماً عنه ... لقد اختفى هشام من حياة خطيبته ليصبح بعدها إكس ... هذه المعلومات لا تقدر بثمن ... إنه يعلم الآن تماماً ماذا سيفعل.

.....

تلفت عماد الى ما حوله بحذر ثم وقف وراء شجرة ضخمة وعيناه لا تكادان تبتعدان عن الطريق ...
منطقة المعامل المهجورة ...
خاله كان يمتلك معملاً هنا وكان يأتي إليه في أوقات العطلة ليساعده بمسك الدفاتر المحاسبية ... لذلك كان يعرف تفاصيل المنطقة جيداً ...
ياله من مكان ليقابل فيه إكس أو لنقل هشام ...
كان قد أرسل لهم رسالة كتب فيها اسم هبة وعنوان أهلها
لن يستطيع إكس مقاومة هذا الطعم أبداً

وعندما جاءته تلك الرسالة في الصباح عرف أنها من إكس شخصياً

الصمت ولا شيء آخر غيره

هذا مكان يصلح بامتياز لجريمة قتل

تحسس جيبه بحذر ...

في تلك اللحظة سمع خطوات حذرة تقترب

كان واحداً منهم ... يرتدي كعادتهم كمامة ونظارة سوداء

نظر سريعاً الى يده ... كان هو إكس فعلاً

خرج من وراء الشجرة ومشى حتى وقف أمامه بتصميم

مرت لحظات من الصمت ثم قال إكس فجأة:

- هل المعلومات التي أرسلتها صحيحة؟

هز عماد رأسه وقال بصوت هادئ:

- بالتأكيد ... لقد فعلت ما طلبته مني حرفياً ... كنت أقف في شارع قرب الحديقة الكبيرة ورأيت امرأة تمشي لوحدها هناك ... هذه

فرصة نادرة كما تعلم ... مشيت ورائها بحذر ثم أسرعت وأمسكت كتفها وأجبرتها على الاستدارة و...

قاطعه إكس بصرامة قائلاً:

- يكفي هذا ...

تابع عماد كلامه قائلاً:

- ولكني لم أكمل كلامي ... بعد أن تركتها راقبتها ورأيتها تدخل الى مبنى معين ... وعلمت أن أمها تسكن وحيدة هناك وستكون هدفي القادم و ...

صاح إكس بصوت هادر:

- قلت يكفي هذا ...

ثم اقترب من عماد بسرعة فأسرع عماد وأخرج مسدساً من جيبه وصاح وهو يتراجع:

- اقترب أكثر يا هشام وسأملأ جسدك بالرصاص.

تجمد إكس تماماً وقال بذهول:

- كيف عرفت ...!؟
- لن أقول لك وسأتركك تدور حول نفسك حائراً كالثور الهائج ... لو كنت أستطيع قتلك عشرات المرات ولكن يا خسارة إن هي إلا مرة واحدة لن تشفي غليلي.

إنهار على ركبتيه وغمغم وهو يكاد ينتحب:

- ماذا حدث لهبة !؟... قل لي أرجوك
- لماذا لا تسأل نفسك ماذا حدث لضحاياك أيضاً!؟ هه ... اطمئن هبة بخير ولم أمسها بأذى ... أنا لست قذراً مثلكم ... ولكني أقسم إن لم تبتعدوا عن طريقي فسأذيقها الويل فعلياً ... أحتفظ في جيبي الآن بقطعة قماش مشابهة تماماً لتلك التي دسّها أعوانكم غدراً في فمي ... سأضعها في فمها إن حاولت فعل أي شيء ... وهناك قطعة أخرى يمتلكها شخص ما أعطيته نقوداً

كثيرة مع عنوانها ليفعل ذات الشيء إن تعرضت لأي مكروه.

اتسعت عينا هشام وهو يقول بصوت مبحوح:

- ولكنك مصاب بالعدوى وقد تموت جراء ذلك ...

ابتسم عماد بعصبية وقال:

- هذا ليس ذنبي والبادي أظلم ... لا يسعك سوى الدعاء بأن يظهر لقاح ما قبل أن أموت أو أن أشفى من تلقاء نفسي ... سأذهب الآن ... أنصحك بأن لا تنسى ما قلته لك مطلقاً.

ابتعد عماد بسرعة من دون أن يبعد فوهة المسدس عن هشام ثم وقف بعد عدة أمتار وسأل إكس:

- لماذا فعلت هذا بنفسك ... كان من الممكن أن تعود لخطيبتك وتتابع حياتك كهشام وليس كإكس.

رد عليه إكس بخفوت:

- لن يحدث هذا مطلقاً ... لو عرفت هبة وأهلها بأنني مصاب بالعدوى فسيجبرونها على فسخ الخطبة ... لقد أصبحت عاراً يخاف منه الناس ... لقد انتهت حياتي تماماً لذلك قررت أن أختفي من حياتها ثم انغمست في العمل مع البصّاقين وبعدها لم أستطع العودة الى حياتي السابقة قط

صمت عماد ثم قال بخفوت مماثل:

- كان يجب أن تحاول على الأقل.

ثم ابتعد بسرعة من المكان على حين بقي إكس مطأطأً رأسه وقابعاً على الأرض من دون أدنى حركة.

.....

أعاد عماد الطاولة الى جانب الحائط وأطفأ النور ... سمع دندات زوجته الممتزجة بصوت الماء المنهمر

فاتجه نحو المطبخ ... كانت تقف أمام الحوض تنهي غسيل بعض الأطباق ... وقف ورائها وأحاطها بيديه ... ابتسمت واستدارت إليه قائلة:

- هل أعجبك الطعام؟
- أجل ... كأي طعام تطبخه ملكة قلبي.

ضحكت في خفوت وقالت:

- يبدو أن الكورونا قد نشّطت غدة الغزل عندك.
- هي نشطة دائماً ولكني قررت استعمالها باستمرار ... تلك الأيام التي قضيتها بعيداً عنك كانت بائسة جداً.

تنهدت قائلة:

- الحمد لله انتهت على خير ... شفيتَ من الكورونا وتخلصنا من البصّاقين ... لقد كانت لفتت جميلة منك أن تدعو خالتي نجاح على العشاء.

- هذا أقل من الواجب ... لولا لطف الله ولولا إقامتي عندها لما تخلصنا من ذلك الخطر.
- لماذا طلبت مني عدم اخبارها بالقصة كلها!؟
- لكيلا تعلم ابنة خالتك هبة بما جرى ... ستتألم عندما تعلم أن خطيبها السابق أصبح أحد زعماء البصّاقين.
- قد تغفر له وقتها ابتعاده عنها.

هز عماد كتفيه وقال:

- هي متزوجة الآن وماضية في حياتها ... من الأفضل لها أن تنسى وحسب.

كانت قد فرغت من غسيل الأطباق فجففت يدها قائلة بتساؤل:

- ترى متى سنتخلص من البصّاقين؟

تنهد عماد وقال وهو يمسك بيدها:

- سيأتي يوم وسيكتشفون لقاح للكورونا إن شاء الله ... سنتخلص من البصّاقين ولكن لن نتخلص من أصحاب الأفكار القذرة ...

الدنيا لم تخلوا من القتلة مطلقاً تحت أي تبرير أحمق ... دعينا من هذا ولنذهب.

- الى أين!؟
- في نزهة ما...

وضحكا سوية ضحكة خافتة وهما يتجهان لغرفة النوم.

يوم كنا نمشي على الطريق

وقف حسام يتأمل جهاز اللوحي الذي استقر في طرف الطاولة ... ثم أخذ ينقل أبصاره بين تفاصيل الغرفة المكتسية بإضاءة زرقاء خفيفة باحثاً عن شيء ما يشغله ويدعه يحجم عن ما ينوي فعله في تلك اللحظة ... تلك الاضاءات الخافتة التي تنبعث وتخفت باستمرار من جهاز الحاسب المكتبي المنعكسة على أسطح الكتب اللامعة المصطفة في المكتبة المستقرة بدورها بجانب الطاولة تماماً ... اللوحات الصغيرة المتراصة بجانب بعضها على

الحائط قرب النافذة ... والأريكة المزركشة بالألوان والتي احتلت جانباً كبيراً من الحائط المقابل ...

مرت عدة دقائق أدرك بعدها أن محاولته باءت بالفشل وأن جميع موجودات الغرفة تراقبه حابسةً أنفاسها في شغف منتظرة أن يقوم بذلك الهاجس الذي شغل حيز تفكيره منذ مدة وطغى عليه تماماً هذا الصباح ...

تنهد في استسلام وجلس أمام الطاولة ومد يده نحو اللوحي وفتح برنامج محادثة ونظر طويلاً نحو أيقونة معينة على واجهته الرئيسية ... مد بعدها يده بتردد وضغط عليها ... بدأ صوت الاتصال بالتردد ... بعد عدة مرات مد يده لكي ينهي المكالمة في نفس اللحظة التي ظهرت صورة فتاة تجلس في غرفة ما وتنظر له في هدوء ... تراجعت يده سريعاً وهو يقول بابتسامة مضطربة:

- مرحباً لبنى ... كيف حالك؟ ... أرجو أن أكون قد اتصلت في وقت مناسب.

ابتسمت الفتاة ابتسامة خفيفة قائلة:

- هذا يعتمد على المقصود بعبارة: الوقت المناسب.

رد حسام بحيرة:

- أقصد أنني لم أعطلك عن القيام بشيء ما.

ازدادت ابتسامتها اتساعاً وقالت:

- لا لم تعطلني عن شيء إن كان هذا هو الوقت المناسب الذي تقصده ... أيام الحظر التي تسبب بها الفيروس التاجي جعلت الوقت الذي كنا نشتكي من سرعة انقضائه ثقيلاً حقاً.

ساد الصمت بضع لحظات بينما كانا يتأملان بعضهما ... ثم تنحنحت وقالت بلهجة ساخرة:

- لو علمت أنك تريد تأملي فقط لكنت أرسلت لك بعض صوري أو دعوتك للانضمام الى حسابي في انستغرام.

ابتسم حسام رغماً عنه وقال:

- كنت سأكتفي بصورك التي على حساباتك الاجتماعية الأخرى ولن أتعبك معي أكثر ... لم أتصل لذلك طبعاً ولكن كما تعلمين سنوات عديدة قد مرت لذلك لم أستطع منع نفسي من أن أملأ ذاكرتي بصورة حية لك .

نظرة له مباشرة وقالت:

- هل أعتبر هذا الكلام غزلاً مستتراً!؟

ابتسم حسام وقال بخبث:

- هذا يعتمد على المقصود بعبارة: غزل مستتر.

ضحكا ضحكة قصيرة ثم ساد صمت قصير آخر تنحنح بعدها حسام وقال وهو يراقص أصابعه على سطح الطاولة:

- بحثت عنك منذ مدة في مواقع التواصل ووجدت أنك لا تتيحين طلبات الصداقة ... ثم عثرت بعدها عن طريق الصدفة على

فتاة أعرف أنها صديقة قديمة لك ... تواصلت معها وبعد عدة محاولات أعطتني رقم هاتفك ... وكان أن طلبت التواصل معك وقبلت بعد عدة أيام ... وها نحن ذا هنا.

رمشت لبنى بعينيها ثم سألته:

- لماذا اتصلت بي بعد كل هذه المدة!؟

نظر لها حسام بجمود ثم قال:

- لنقل أنها طبيعة الدماغ البشري الذي يكره النهايات المفتوحة ... أحياناً يهادن ويقبل بها في الروايات والأفلام ولكنه لا يتسامح معها في الحياة الواقعية ... هناك أمور تبقى ملتصقة في الذاكرة وتبدأ في وقت ما بالإلحاح غير راضية ولا قانعة ومطالبةً بالمزيد .

أخذت لبنى رشفة من كوب ماء موضوع أمامها وقالت مستغربة:

- ومن قال أن ما حصل بيننا له نهاية مفتوحة!؟ أنا أراها مقفلة بألف قفل وألف مفتاح ضائع.

بدأ حسام بالنقر بعصبية على سطح الطاولة وقال:

- لو كان الأمر كما تقولين حقاً لما وافقت على طلب التواصل ... عموماً سأنهي الاتصال لو أحببت و...

قاطعته قائلة بهدوء:

- تماماً كما أنت ولم تتغير مطلقاً ... انفعالي وقراراتك متسرعة.

قال بتوتر:

- ليست القضية قضية ردود أفعال ولكنك تصدّين أي محاولة مني للاستمرار في الحديث ... ما دمت قد اتصلت بك فأنا ... بداهة ... أريد التحدث معك بينما أنت لا تساعديني على ذلك مطلقاً.

ابتسمت لبنى وقالت:

- اعتمد على نفسك ولا تطلب أي مساعدة من أحد.

رد عليها بسرعة:

- أبقي الطريق مفتوحاً إذن ودعيني أمر.

أخذت تضحك بينما بادلها الضحك بنبرة عصبية بعض الشيء ثم سعلت عدة مرات وقالت:

- تفضل بالمرور وانتبه لقواعد السرعة والسلامة من فضلك.

ابتسم حسام وقال بشجن:

- صدقيني لست أرغب باللف والدوران وأريد أن أتكلم بشكل صريح ... برغم قناعاتك عما حصل فأنا أؤمن بأنني لم أخذ فرصتي الكاملة في شرح ما حدث من وجهة نظري ... لقد انتهى الأمر بسرعة ووجدت نفسي أمام أبواب محكمة الإغلاق ولست أنا من وضع الألف قفل ولا أنا من أضاع الألف مفتاح.

ثم سكت قليلاً وتأملها مرة أخرى وتابع:

- بالنسبة لي ... لم تكن أول مرة أراك فيها حدثاً عابراً ... عادة ما يسمون هذا حباً من أول نظرة ... أعتقد أن هناك تفسيراً أعمق لتلك الجملة ... نحن نرسم صورة اعتبارية لما نراها أنها صفات شكلية ونفسية مثالية ونجمعها في بطء بدءً من سنوات الطفولة لتشكّل شخصية مجهولة بلا اسم ... ونصادف في لحظة ما شخصاً نراه مألوفاً ويدخل الى قلبنا من دون حتى أن نتبادل معه أي كلمة ... لماذا يبدو مألوف بالنسبة لنا!؟ ... لأنه يشبه تلك الشخصية التي قضينا سنوات نرسمها في مخيلتنا وأبقيناها هناك لتلك اللحظة... هذا ما شعرت به تماماً عندما رأيتك أول مرة ...

قاطعته قائلة:

- أذكر ذلك اليوم ... مكتب التصميم الذي كنت تعمل به وتلك التعديلات.

هز حسام رأسه وقال بتصميم:

- لم تكن هذه أول مرة أراك بها ولا حتى ثاني مرة.

نظرت له بتساؤل فتابع بهدوء:

- حصل هذا مرات عديدة وعلى فترة زمن لا بأس بها ... لدرجة أني كنت أستغرب وأقول لنفسي أن الدنيا صغيرة حقاً ولكن ليس لتلك الدرجة ... لقد بت أتوقع رؤيتك كما أتوقع أن أرى ممثلاً ما في فيلم يقوم ببطولته.

سكت وهو ينظر بتمعن لتفصيل ما في مكتبة صغيرة خلفها ثم ابتسم قائلاً:

- أول مرة كانت قبل حادثة المكتب بسنتين تقريباً ... كنت وقتها في سنتي النهائية في الجامعة وكان عليَّ تصوير بعض

المحاضرات ... دخلت الى تلك المكتبة الكبيرة التي تقع على الجانب الآخر من شارع الجامعة ... المكتبة المزدحمة دائماً والتي هي ليست مكتبة بالضبط بتلك الرفوف المليئة بالهدايا المتموضعة في جزء لا بأس به ... كنت أقف هناك أنتظر دوري في ملل عندما سمعت صوتاً نسائياً عالياً يأتي من الطرف الداخلي من المكتبة ... رفعت رأسي ورأيتك تقفين هناك بوجه محمر وكلمات غاضبة ... كنت قد أضعت هاتفك لذلك أخذت تتهمين أحد الواقفين هناك بأنه قام بسرقته ... وتطلبين من صاحب المكتبة إغلاق الباب ... وشرعت في تفتيش الشاب المسكين ولم تجدي الهاتف في جيوبه ... ثم بدا عليك أنك تذكرت شيئاً ما ومددت يدك الى داخل معطفك واكتشفت أن هاتفك موجود هناك ... يبدو أن بطانة

الجيب كانت ممزقة والهاتف يستقر داخل المعطف.

ثم ضحك وتابع في استمتاع:

- ضحك الواقفون وقتها وكنت أنا من ضمنهم بينما احمر وجهك وابتسمت في خجل ثم غادرت المكتبة على عجل ... ومررت من جانبي أثناء ذلك ورأيتك بوضوح ... الشخصية المجهولة التي لم تعد الى حد ما كذلك ... لم أكن أعرف اسمك ولا أي شيء آخر عنك ... ولم أكن أملك الشجاعة اللحاق بك وسؤالك عن ذلك ... تلك الغاضبة محمرة الوجه كانت ستخرج هاتفها ... فعلياً ... من جيبي وتملأ الدنيا صياحاً لأجد نفسي أتناول الشاي في مخفر الشرطة.

ابتسم حسام وهو يتأمل وجه لبنى الذي احمر قليلاً وهي تقول في خفوت:

- أذكر تلك الحادثة ... لقد كان الهاتف غالياً ولن أستطيع احتمال خسارته وخسارة الصور الموجودة داخله ... لذلك تسرعت واتهمت ذلك الشاب ... وإلى الآن أشعر بالخجل كلما تذكرت ما سببته له من احراج.
- وتقولين عني أنني عصبي ومندفع.

ثم استطرد في الكلام:

- كانت هذه هي المرة الأولى ... كانت تنتابني تلك الذكرى مرات عديدة خلال الأشهر القليلة التالية ... وبدأت ملامحك بالخفوت قليلاً عندما أتت المرة الثانية ... آخر يوم لي في الجامعة ... الطلاب يملئون ممرات الكلية وأصوات الأحاديث والضحك تصمّ الآذان وأحاديث متناثرة عن العيد القادم بعد عدة أيام ... كنت أستعد لمغادرة المبنى عندما لمحتك واقفت بصحبة عدة فتيات ... في بادىء الأمر لم أكن متأكداً من أنها أنت

ولكني اعتمدت على ذلك الشعور المشابه لما شعرت به في المرة الأولى والذي انتابني وقتها وهمس لي بأنها نفس الفتاة ... وقفت لفترة حائراً ... لو لم أفعل أي شيء فقد تكون هذه هي المرة الأخيرة التي أراك بها ... هل أقترب وأبدأ الحديث معك!! ... كان من الممكن أن يحدث ذلك لو كنت وحدك فنحن لسنا في الشارع ... ولكن مع كل هذا العدد من الفتيات سيكون الموقف محرجاً ولن أستطيع تحمل أي ردة فعل انفعالية ما منك أو منهن ... وجاءت الفرصة عندما سقط منك دفتر صغير وأنت تهمين بالمغادرة ... أسرعت بالتقاطه وفتحت أول صفحة ... لبنى عزيز ... ها هو اسمك ذا ... وبردة فعل سريعة على غير العادة التقطت من حقيبتي كرت معايدة صممته بنفسي وكتبت عليه كلمة ... بحبك ... ووضعته بين

صفحات دفترك ... بعدها رأيت تعودين لتبحثي عن دفترك الضائع ... اتجهت لك بهدوء وسألتك:

- هل هذا لك يا آنسة؟

خطفته عندها وقلت لي بسرعة:

- نعم شكراً لك ... وابتعدت بعدها بسرعة.

اتسعت عينا لبنى قليلاً ثم استدارت لتنظر إلى محتوى أحد رفوف مكتبتها على حين تابع بسرعة:

- نعم بالضبط ... نفس الكرت الذي تضعينه على الرف وراءك.

التقطته لبنى وتأملته ثم قالت بدهشة:

- أنت الحبيب المجهول إذن !!... لقد اكتشفت وجوده بعدها بأيام ولم أعرف من وضعه وكيف وضعه أساساً ... شككت أنه نفس الشخص الذي وجده وأعطاه لي ولكني كنت على عجلة ولم أميز ملامحك بالمرة.

ضحك قائلاً:

- هل أسميتني الحبيب المجهول!!؟

أعادت وضع الكرت بمكانه السابق وهي تقول:

- لقد كنت بطل الموسم وقتها ... وقضيت أنا وصديقاتي الوقت ونحن نخمن شخصية من قام بذلك ...لقد كانت أول مرة يرسل لي أحد بها رسالة حب ... رسالة مكونة من كلمة واحدة وكرت معايدة لم أجد شبيهاً له في المكتبات ... ظل بعدها من ضمن مقتنياتي الشخصية التي أحرص على أن تكون معي في أي مكان أستقر فيه ... هل أنت حقاً الحبيب المجهول!!؟ ... حقاً شيء لا يصدق.

ثم صمتت وهي تنظر اليه وكأنها تستحثه على متابعة حديثه ...

- ذهبت بعد ذلك بأشهر الى خدمة العلم ... إجازات قليلة ووقت ثقيل مضى في النهاية ووجدت نفسي في البيت مرة أخرى ودعوات الغذاء والسهرات تنهال عليَّ باعتباري

أصبحت مناسبة للاحتفال ... الحقيقة أنها ليست جميعها خالية من غايات معينة ... لدينا الآن مشروع عريس والحياة كما تعلمين فرص وهناك فتيات عندنا ... طوال الاسبوع الأول لم يكد يخلو اليوم من مناسبة ما أو دعوة غذاء ... وفي إحدى تلك المساءات كنت أسير داخل معرض الكتاب السنوي برفقة إحدى قريباتي التي أصرت أمها بعد تناول الغداء معهم أن أصحبها لهناك بدعوى الخوف عليها من الزحام !! كانت هذه حجة تقرب أخرى و...

قاطعته وهي تقول له بحنق:

- لماذا تصور الأمر وكأن الفتيات يتراكضن ورائك ... هذه النظرة الذكورية البغيضة التي لن تكفوا عنها أبداً.

قال لها باستغراب:

- ومن قال إني قصدت هذا!!؟ أنا أخبرك بحقيقة ما جرى ... لم تكن كل الدعوات التي أتتني وقتها بسبب انتهائي من خدمة الجيش فقط ... كان هذا واضحاً جداً ولا تقولي لي أن قريبتي تلك التي تعرف نصف فتيات المدينة كانت معدومة الحيلة تجاه اصطحاب جيش منهن معها الى المعرض ... ولم أقل إن هذا خطأ فالشباب يفعلون أكثر من ذلك بكثير ... نحن في العادة من يمارس معنا التمييز بهذا الصدد ونوضع في خانة المطلوب منه أن يكون الطرف المبادر.

ثم صمت قليلاً وعاد ليقول:

- كنا نسير سوية نتبادل بضع أحاديث متفرقة عن المعرض والكتب وخططي المستقبلية ... كنت أتلفت أثناء الحديث نحو أقسام دور النشر عندما رأيت تقفين داخل أحدها ... لم أصدق عيناي في البداية ... كانت قد مضت

أكثر من سنة على لقاء الجامعة ... لكني دققت أكثر وشعرت بعد ذلك بفرحة طاغية ... إنه أنت ولا شك ... وتعملين في دار النشر تلك ... ها هي ذي نقطة حقيقية أستطيع البدء منها ... كنت أود الاقتراب منك وتبادل الحديث بأي حجة كانت ... لكني قدرت أن وجود قريبتي معي لن يكون مناسباً ... قد تشعر بشيء ما من كلامي أو بريق ما قد يلمع في عيناي ولن يكون الموقف لطيفاً ... لا يجب أن يكون هناك أحد آخر سوانا نحن وزحام البشر المحايد ... وجاءت الفرصة تمشي وحدها على هيئة فتاة وقفت فجأة أمام قريبتي وتظاهرت بأنها موشكة على الإغماء من تلك المفاجئة اللطيفة ... انتهزت الفرصة وأشرت لها بأني سآتي حالاً ... ثم أسرعت واقتربت منك ... وقتها كنت تتبادلين الكلام مع زبون متشكك ينظر لكل

شيء في ريبة ... جدال لا فائدة منه رأيتك تتحمليه في صبر... انتظرت حتى ابتعد ووقفت أمامك وبدأت في السؤال والإشارة نحو الكتب ... كانت هناك تساؤلات عديدة تدور في عقلي ... أحدها عن احتمال وجود ذلك الخاتم القبيح في موضع معين في إحدى يديك ... لم يكن موجوداً ... حمداً لله ... اشتريت وقتها مجموعة من الكتب لا أملك أدنى معرفة عن نصفها على الأقل ... كنت أريد كسب الوقت مهما كان الثمن ... كنت أريد أن أستمع لنبرة صوتك وأستوعب كل تفصيله من ملامح وجهك ما أمكنني ذلك ... حاولت كتم ضحكة كادت تطيش مني وأنا ألمح تلك النظرة في عينيك ... ها هو ذا أحمق آخر ... ابتعدت في النهاية وأنا أشكرك على ما قلت أنه تعاملك الجميل بينما كان شكري لتلك الدقائق القليلة التي

قضيتها في الحديث معك ... لم تكن نوعية الحديث مهمة بالنسبة لي لأن الحديث يبقى حديثاً في النهاية .

صمت حسام وعاد ليتبادل النظرات مع لبنى لبعض الوقت ...ثم أخفضت عينيها وزمت شفتيها بعدها وقالت:

- كفَّ عن اطالة النظر لي ... إنك تشعرني بالارتباك.
- أنا آسف حقاً ولكني لن أستطيع وعدك بذلك ... فقط أرجو منك أن تتحمليني حتى تنتهي المكالمة.

تجاهلت لبنى ما قاله تماماً وأخذت تحدق بأصابع يدها وهي تقول:

- الحق أن ما تقوله غريب تماماً ... عادة ما نصادف في حياتنا مئات المواقف كتلك التي ذكرت ... ولكننا ننساها بمجرد انتهائها وننسى معها الشخوص التي تعاملنا معها

... ولكن الأمر مختلف تماماً هنا ... بالنسبة لك كنت تتعامل مع شخص واحد ... معي أنا ... ولكن بالنسبة لي كنت أنت أكثر من شخص ولم يكن من الممكن الربط بين شخص ما كان يقف أثناء اتهامي أحدهم بسرقة هاتفي وبين الحبيب المجهول الذي وضع في دفتري كرت معايدة مكتوب عليه كلمة تعبر عن حبه وبين ذلك الثرثار الذي صادفت العديد مثله في ذلك المعرض ...

هز رأسه بتتابع وقال وهو يعتدل في جلسته:

- هذا صحيح ... كان وجودك هو من يخلق الموقف من دون أن تدري بذلك ... انهمكت خلال الأيام التالية بالبحث عن مكتب في وسط المدينة ... أردت العمل في التصميم الاعلاني ... لو كان عملك هو هوايتك فلن تعمل طوال حياتك كما يقولون ... وكان التصميم هو هوايتي منذ الصغر ... علاوة

على أن ذلك كان سيضعني في الطريق اليك ... لا بد لدار النشر من مصممين ... كنت أحوم أحياناً حول مقر دار النشر عليّ ألمحك غادية أو رائحة ولكن الأمر لم يكن بهذه السهولة ... الصدف سميت بذلك لأنه لا يمكن التنبؤ بحدوثها ... أصبح المكتب جاهزاً للعمل وذهبت بعدها إلى دار النشر عارضاً خدماتي وراغباً برؤيتك ... ومرة أخرى لم أستطع ذلك ... كنتِ وراء مكتب مغلق ما... لم يتملكني اليأس وبقيت أتواصل مع دار النشر ... وبدأت أتلقى منها تصميمات لكتب وأشياء أخرى ... وجاءني اتصال في ذلك اليوم أن تصميماً معيناً كنت قد أرسلته لهم بحاجة الى بعض التعديلات وأن هناك شخصاً قادماً من طرفهم لكي يتم ذلك بسرعة ... كنت وقتها أتسلم بعض اللوحات الفنية التي قمت بطباعتها على

قماش لعرضها للبيع ... أخذت أنتقي لها أمكنة مناسبة في غرفة الاستقبال ... لم أكن قد وظفت أحداً بعد لذلك كنت أقوم بجميع الأعمال بنفسي ... وعندما انتهيت من تعليق اللوحة الأخيرة رأيتك تدخلين للمكتب .

ابتسمت لبنى وقالت بانتصار:

- ها قد بدأت تتحدث في أمور أعرفها وأصبحنا متعادلين الآن لقد تركت تتكلم براحتك وجاء دوري الآن في الحديث ... اتصل بي في ذلك الوقت مديري المباشر وأخبرني بضرورة الذهاب الى مكتب أحد المصممين لعمل بعض التعديلات لتصميم غلاف إحدى الكتب التي ستطبع في تلك الليلة ... عادة يقوم الشباب بتلك الأعمال ولا أعلم لم اتصل بي أنا بالذات ... قلت لنفسي هذه فرصة لكسر روتين العمل ... وسأذهب

بعدها إلى كافتيريا قريبة لأشرب شيئاً وأراقب ما يفعله الناس أثناء وجودي في العمل ... لا زلت أذكر تعابير الدهشة التي ارتسمت على وجهك عندما رأيتني ... رحبتَ بي وكأننا أصدقاء من فترة طويلة ودعوتني للدخول ... قلت لنفسي ما بال هذا الأحمق ... لاحظت أن المكتب خال من أي أحد سوانا ففتحتُ الباب لأقصى حد ووضعت كرسياً أمامه ... ضحكت وقتها وقلت لي ...

قاطعها قائلاً في مرح:

- هذا اتهام صريح ولكن لا بأس هذا حقك.

هزت رأسها وقالت مبتسمة:

- شدتني وقتها طريقة كلامك البسيطة والمباشرة ... بدأنا بعدها بالتعديلات ... كنت تجلس على كرسي المكتب بينما جلست أنا على الطرف الآخر ممسكة بالورقة التي أرسلت لي بهذا الخصوص ... لاحظت أنك

تعمل ببطء وتلتفت لي كثيراً ... قلت لنفسي سيكون تعيس الحظ فعلاً لو حاول فعل شيء أحمق ... سيكون هذا يوماً أسود بالنسبة له ولن ينساه بسهولة.

ضحك حسام قليلاً وقال:

- لاحظت تلك النظرة الصارمة في عينيك فكففت عن ذلك إلى حد ما ... لم أرد أن يعكر أي شيء صفو هذا اللقاء الذي انتظرته طويلاً ... حاولت إطالة الوقت قدر ما استطعت ولكن في النهاية انتهت التعديلات ... قمتِ واستأذنت بالمغادرة ... كاد عقلي أن ينفجر وأنا أفكر بما يجب أن يحدث بعد ذلك ... لو غادرتِ الآن فلربما لن أستطيع رؤيتك بعدها... الأيام لها ألاعيبها ولن أستطيع المراهنة على لقاء آخر قد لا يحدث مطلقاً ... خفت أن يكون هذا هو فصل النهاية ... قد تأتي المرة القادمة ومعها حقيقة

أنني فقدتك الى الأبد وأنك سلكت طريقك مع شخص آخر ... احتمال لن أقوى على احتماله مطلقاً ... كنتِ موشكة على المغادرة عندما استوقفتك وبدأت بحديث آخر ...

ساد الصمت مرة أخرى ثم تابع الكلام ببطء:

- أريد أن أتكلم معك قليلاً لو سمحت لي يا آنسة لبنى ... من السهل جداً أن يُنظر إلى أي كلام أو أي فعل على أنه صادر عن سوء نية ... نحن لا نكف أبداً عن ذلك لكي نمنع بطريقة ما أي شيء غير مقبول لنا من الوقوع فعلاً ... الحياة أصعب من أن نتحمل مزيداً من الأشياء المستفزة التي من الممكن أن نتعرض لها ممن نعرفهم ومما لا نعرفهم على حد سواء ... ولكن تبقى هناك احتمالات أخرى بأن لذلك غايات غير ما تعطيه لنا الاستنتاجات البسيطة الجاهزة ...

الحقيقة أنني أتخيل الآن طريقاً واسعاً تصطف فيه شجيرات الورد بجانب المتاجر المغلقة التي يلتمع زجاجها على أضواء كشافات السيارة القليلة في هذا الوقت ... المساء قد هبط بشكل كامل ورائحة الزهور تعبق في ذلك الشارع ... هناك لحن ما يأتي من بعيد ... صورة تقليدية قد ترينها على الانترنت أو في لوحة معلقة في مكان ما كتلك اللوحة المعلقة على الحائط هنا ... ولكن بالنسبة لي لا أجدها تقليدية لهذا الحد ... لأن اللوحة خالية من تفاصيل معينة لم توجد بها بعد ... هي موجودة الآن في عقلي وقلبي على حد سواء ... وستبقى موجودة سواء تحققت أو لم تتحقق ... أتخيل بأننا نحن الاثنان نسير هناك ونتحدث ... هناك احتمالات عديدة لفحوى ذلك الحديث ... قد يكون عن موعد يوم الخطبة وما هو لون

البذلة التي سأقوم بارتدائها وهل سيتاح لنا المجال لكي نرقص سوية ... قد يكون عن تحضيرات زفاف وتلك التفاصيل المتعبة عن عدد المدعوين وشكل كرت الدعوة ومكان الصالة ... سنتوقف في النهاية عن هذا الكلام ونرمي كل هذه التفاصيل للكبار لنبدأ كلاماً آخر ... كلاماً شهياً بما لا يقاس لكي لا يحكى أي كلام غيره ... قد يكون حديثاً عما جرى في تلك السهرة التي دعتنا لها إحدى عائلتينا وكيف أن عمتي كانت ثرثارة وتحدق بك وتمصمص شفاهها باستمرار وكيف أن جدتك كانت تقول بفخر أنك لم تحتاجي لأي دروس خصوصية لكي تدخلي الجامعة ... لا يهمني في أي زمان سنسير في ذلك الطريق المزدان بشجيرات الورود ... ما يهمني أن نسير هناك فعلاً ... لا

أريد أن أسير وحدي هناك ... أريد أن أسير معك أنت.

ساد الصمت لدقائق وأخذت لبنى ترمش بعينيها بسرعة ثم قالت بصوت مبحوح قليلاً:

- يا له من يوم ... ذهبت لإتمام بعض الأشياء المتعلقة بالعمل وعدتُ بخطبة عاطفية عصماء.
- هل تتذكرين ماذا قلت لي وقتها؟
- ..... أتذكر.
- نظرت لي في دهشة ثم ضحكت وقلت بخفوت: لن أستطيع الآن تخيل ذلك الطريق الليلي ... سيكون الصباح وأماكن أخرى مناسبة أكثر ... ثم غادرت مسرعة ...

كنت نسيت ... يا لحماقتي ... أن أطلب منك رقم هاتفك ... قدرت بكل الأحوال بأني لن أستطيع استبقائك لثانية أخرى ... لم تكن تلك مشكلة ... تلك المكتبة التابعة لكم أسفل دار النشر كانت

مناسبة ... في اليوم التالي ظللت واقفاً هناك أقلّب الكتب وأرفع ضغط الموظف العجوز بأسئلتي التي لا تنتهي حتى لمحتك تغادرين المبنى ... خرجت من المكتبة بسرعة واقتربت منك وقلت لك بصوت هادئ :

- مساء الخير ... سأترك لك التخيل هذه المرة كما اتفقنا.

أشعة الشمس الحمراء الراحلة والهواء المنعش الذي أخذ يهب مُراقصاً أغصان الأشجار العجوز ... محل الألعاب القديم التي لا تتغير المعروضات في واجهته الزجاجية أبداً ... تفاصيل اختفت وصارت مبهمة وراء ابتسامتك.

الأضواء التي لا تكف عن الانعكاس على كعوب الكتب وصوت رتيب ما ينبعث من مكان قريب ... سألته لبنى فجأة:

- لمَ لم تخبرني بكل هذا من قبل!؟

صمت حسام قليلاً ثم قال:

- كنت أخبئها لذلك المشوار الليلي الذي كنت أصبوا دائماً لحدوثه ... لتردد نسمات الليل كلامي وأنا أخبرك بأن للقصة تفاصيل لم تكوني تعلميها قط ... وأن ما كنت تحسبيه البداية هو مجرد بقية لها لا أكثر ... كباقة مليئة بالورود التي يختفي بعضها خلف الحزام الملون الذي يغلفها ... لم أكن أتصور قط أنني سأخبرك بها وبيننا كل هذه المسافة التي أعجز عن تخيلها ... فضلاً عن الاقتناع بأنها موجودة حقاً.

نظرت لبنى الى طرف الغرفة وقالت:

- لقد كانت تلك الأيام من أحلى أيام حياتي ... لم تحصل معي من قبل أي مقدمات تدل أنني سأتزوج بطريقة أخرى غير الطريقة التقليدية ... كان يأتي للبيت أحياناً من يرغب برؤيتي ... أم تتظاهر بالطيبة والحكمة وابن وديع بزي ما مبالغ فيه وكأنه طفل في يوم

عيد ... كل شيء لامع ومثالي ... ولكن العيون كانت مختلفة ... العيون التي تعجز عن إخفاء حقيقة الطباع الكامنة ورائها ... لا بد من لحظة ما تفضح كل شيء وعندها كنت أستدير عائدة الى غرفتي قائلة لأمي بأن هذا لا يناسبني أبداً ... لم أكن لأتقبل أيضاً أساليب المراهقين تلك التي تخفي نوايا أنانية ورغبة في العبث لا أكثر ... كنت أفترض أني سأبقى هكذا حتى تتراكم الضغوط النفسية والكلامية عليَّ وأجد نفسي مرغمة على زيجة ما قد تنجح وقد لا تنجح لأبدأ في التأقلم مع المجهول الذي سيحصل وقتها ... ولكنك وقفت أمامي فجأة لتكلمني بتلك الثقة العجيبة وكأنك متأكد من أنك ستحصل على ما تريده برغم أن القرار لم يكن طرفه الآخر بيدك ... وقفت لتحدثني عن أمور تتخيلها ستحدث لا محالة

فيما بعد وكأنك تجاوزت ما قد يحدث في تلك اللحظة ... هذا الإصرار أصابني بالدوار وملأ قلبي بسعادة لا أتخيل مقدارها ... إنه يريدني أنا بالذات وليس يريد أي فتاة فقط لأن أمه قالت له وجدت لك واحدة مناسبة ... أنا لا أقول أن الزيجة التقليدية شيء سيء ولكني كنت أريد من يمشي نحوي أنا لبنى وليس أنا الفتاة ... من يريد أن يراني أنا بالذات من أرتدي ثوب الزفاف الأبيض.

صمتت قليلاً فقال حسام بحرارة:

- كنت أنا من يريد ذلك فلماذا حدث بعدها ما حدث!؟

احمر وجه لبنى وقالت باستياء:

- تسألني أنا لماذا حدث ما حدث!!؟ الأحق بأن يسأل هذا السؤال هو أنت وليس أنا ... لقد تمت الخطبة وكانت ليلة من عمري أصابت كل قريباتي بالدهشة مني أنا البائسة التي

لم أكن أجيد الرقص ولا أحب حضور حفلات الزفاف ... لقد كنت وقتها كأبعد ما أستطيع تخيله من السعادة والحيوية لدرجة أني لم أكد أتعرف على تلك التي كانت ترمقني من الطرف الآخر من المرآة ... لكل هذا هل من الممكن أن أكون السبب بما حدث!!؟

صمت حسام تماماً وارتسم الحزن على وجهه على حين تابعت لبنى قائلة بألم:

- أكثر ما أحببته فيك هو رقتك وكلامك الهادئ ... كان هذا فقط ما أرغبه ممن سأتزوجه ... أن لا أكون هدفاً لصراخه أو تفريغ توتره ... العجيب أنك لم تصبر حتى نتزوج وبدأت بذلك في فترة الخطبة نفسها ... الفترة التي يحاول غيرنا أن تكون مثالية ولو كذباً وتمثيلاً أفسدتها أنت بعصبتيك.

لوح حسام معترضاً وقال:

- كلامك فيه قدر كبير من المبالغة ... لم أكن كذلك دائماً ... أحياناً فقط كنت أفقد السيطرة على أعصابي.
- هذه الأحياناً كانت تعكر مزاجي لأيام متواصلة ... ما كان يثير غضبي حقاً أنني لم أكن من يثير غضبك ... موضوع ما يفتح بشكل عابر كان يكلفني حزناً لا ذنب لي فيه ... ثم أتى ذلك اليوم الذي لم أستطع تحملك فيه قط ... ذلك الحديث في السياسة الذي لا منطق من الكلام به بين خطيبين وانفعالاتك الغريبة وقتها وكأنني أنا السبب بما يحدث وأنني من يطلق النار على الناس في الشوارع.

خفض حسام عينيه وهمس:

- لقد خلعت خاتمك ووضعته بيدي وبدأت تصرخين بوجهي ثم ابتعدت ... حاولت اللحاق بك ولم أتمكن من كبح جماح

غضبك ... ثم اختفيت بشكل كامل ... لم تردي على اتصالاتي وكففت عن الذهاب لدار النشر ... جميع محاولاتي أنا وعائلتي لإصلاح الأمر كانت بلا فائدة ... ذهبت لمنزلكم ووقفت واعتذرت لكل عائلتك وطلبت رؤيتك وأخبرتهم بأني سأعتذر منك أمامهم وأجابني والدك بانعدام حيلة بأنه حاول مراراً ولكنك رفضت بشكل قاطع وأنك غير موجودة في البيت ... ما هي الجريمة التي فعلتها حتى لا تغفريها لي ... لقد كنت مستعداً لأي نوع من الرجاء حتى أصلح ما أفسدته ... كنت أعلم أنني مخطأ وأني قسوت عليك وقتها ... ولكنك أقفلت كل الأبواب ولم تتركي لي أي وسيلة أو أمل.

نظرت له بحدة وسألته:

- وماذا كنت تنتظر بعد الذي تسببت به!؟ ... لقد أصبح البكاء لي عادت يومية وكففت

أصلاً عن الحياة وأصبحت كالجثة الهامدة في المنزل ... وفوقها توقفت أنت عن المحاولة واختفيت أنت أيضاً.

ضحك حسام ضحكة مريرة وقال لها بهدوء:

- هل تعلمين أين كنت في تلك الفترة؟

نظرت لبنى له بفضول وقالت:

- لا طبعاً ... أين كنت في تلك الفترة؟
- في المعتقل ... قضيت هناك حوالي التسعة أشهر ... كنت أساهم ببعض المال في تأمين بعض المساعدات للمناطق المحاصرة ... وشى بي أحدهم فجاؤوا وألقوا بي هناك.

نظرت لبنى له بأسى وقالت:

- لم أكن أعلم بذلك ... أسفه لسماع ذلك.
- لقد دفعت عائلتي الكثير من المال لأخرج من هناك ... وكمية أخرى منه لكي أعود انساناً طبيعياً مرة أخرى ... وعندما عدت الى رشدي كان أول شيء فعلته هو الذهاب الى

منزلك ... و اكتشفت بعدها أنكم سافرتم إلى ألمانيا ... مازلت أذكر وقوفي أمام باب منزلك ... تذكرت وقتها وقوفاً آخر أمامه وأنا أنتظر السماح لي بالدخول ليبدأ الجزء الأخير من حفل خطبتنا ... عدت أدراجي وأنا لا أكاد أرى الطريق أمامي ... لم يعد لي مكان هنا ... بقيت هذه الفكرة تلح عليَّ حتى وجدت نفسي في تركيا ... كانت السنوات الأولى صعبة وبدأت فيها فعلياً من الصفر ... تغير كل شيء الآن والحمد لله ... أصبحت مواطناً في هذا البلد واشتريت بيتاً ... عدت لأعمل في التصميم وعادت الحياة لطبيعتها الأولى إلا من شيء واحد .

تجاهلت لبنى عباراته الأخيرة وسألته وهي تعتدل بجلستها:

- لقد أخبرتني ببداية حديثنا أنك لا ترغب في اللف والدوران وأنك ستتكلم بشكل صريح

... ولم يحصل هذا حتى الآن ... ماذا تريد يا حسام!؟

اقترب حسام من الشاشة أكثر وبدأ يتكلم بسرعة وحرارة:

- لقد حاولت مراراً أن أبدأ حياة جديدة ولكني كنت أفشل دائماً ... أتعرف على فتاة ما وتكون الأمور على ما يرام حتى أبدأ في التكلم عن الارتباط عندها تخبرني بأنها خائفة وأن الأمر بحاجة الى مزيد من الوقت والتفكير ... وبعدها تقطع تواصلها معي بشكل كامل ... حدث ذلك مراراً لدرجة أنني بدأت ألوم نفسي على تلك المحاولات التي كنت أعرف ضمنياً أنها لن تنجح وأن افتراض نجاحها ضرب من الجنون وبداية لمشاكل أخرى لن تنتهي ... كانت هناك واحدة فقط صالحة لنمشي سويةً على الطريق ... رحم الله تلك الأيام التي بدأنا

نمشي فيها على الطريق ... ورحم الله تلك الأيام التي كان هناك احتمال ما أن نعود ونمشي فيها على الطريق ... ورحم الله تلك الأيام التي كان باستطاعتنا المشي فيها على الطريق قبل أن يكون الخوف من الكورونا والتباعد الاجتماعي وانقطاع السفر هو أسلوب الحياة الذي باعد بيننا أكثر.

ثم أغمض عينيه قليلاً ثم فتحها وعاد ليقول :

- عندما سألتك عما إذا كان الوقت مناسباً رددتي عليَّ بأن هذا يعتمد على المقصود بهذا السؤال ... أنا أقصد الآن المعنى الآخر ... هل الوقت مازال مناسباً؟؟

وأخذ ينظر لها برجاء بينما أخذت ترمش بأهدابها في صمت ثم قالت :

- لا أدري بالضبط ... هذا يعتمد على أمور عديدة لا أستطيع الحكم عليها بهذه البساطة.

- لا تجعلي الأمر صعباً هكذا ... تخيلي أنني لم أذهب إلى المعتقل وأننا عدنا لبعض وأكملنا حياتنا سوية ... هذا ما أرغب به الآن ... لقد مرت سنوات حقاً منذ ذلك اليوم ولكن صدقيني أنا هو من تعرفيه وأنت تماماً من أعرفها ... لقد أذهبت السنوات القاسية الماضية ما كنت تكرهينه وما كان يحزنك.
- وما أدراك أنني تماماً من تعرفها وأنني لم أتغير!؟
- ما قلته أنت ... العيون التي تعجز عن إخفاء الحقيقة ... عيونك وملامحك التي لم تتغير عما كنت أعرفه دائماً ... منذ تلك اللحظات العاصفة زمان في المكتبة وحتى بداية مكالمتنا ... لقد لاحظتِ أنني أتأملك بإفراط وتململت من ذلك ... الحقيقة أنني كنت أبحث عنك ووجدتك وكنت أبحث عن أي

شيء دخيل آخر ولم أجده ... بالعكس أصبحت أكثر جمالاً ورقة .

خفضت لبنى عينيها وقالت بخفوت:

- لولا أني أعلم أن الصراحة والمباشرة صفات أصيلة بك لقلت لنفسي أنك تمارس معي الآن رقصة طاووس ذكر لا أكثر.

ضحك حسام وقال:

- لن تتسع غرفتي لنفش كل هذا الريش.

بادلته لبنى ضحكة خفيفة ... ثم ساد الصمت لبعض الوقت ثم تنحنحت وقالت:

- دعنا نتبادل الحديث خلال الأيام القادمة ... بكل الأحوال لا نملك سوى ذلك في الوقت الحالي.

انفرجت أسارير حسام وقال بفرح غامر:

- هذا أقصى ما أتمناه الآن وما أرغب به ... سيأتي يوم قريب سأنتظرك به في المطار وبيدي باقة ورد تنقصها وردة لا تضاهيها أي

وردة أخرى ... سنمشي بعدها على الطريق وستكون هناك ذكريات وأضواء كثيرة مبهجة ... سيطغى اشتياقي لك ليغمر قلبي وصدري الذي لن أملأه بعد ذلك سوى بأنفاسك.

- هل تعدني أن تكون كما أنت الذي أعرفك وأن لا تجلب لي الحزن أبداً.
- أعدك بأن أتوجك ملكة على حياتي القادمة وأعتزل أنا لأتفرغ لحبك لا أكثر.

ساد الصمت إلا من صخب العيون ... ثم عادا مرة أخرى لتبادل الأحاديث.

الشرفات الخلفية

الشمس القابعة في طرف السماء ... المضرجة بلون الورود والمتعبة من عناء اليوم
ألقى محمود بنظره الى الأفق مراقباً سرب الحمام الغادي والرائح قرب قرص الشمس ثم فتح الشباك حتى مصراعيه وعاد الى الممر وجلس عند باب الصالة ماداً رجليه مستجدياً الأنسام الرحيمة الخافتة التي أخذت تهب بين الحين والآخر ...
الهدوء المخيم المريح للأعصاب مع تلك الأصوات الخافتة التي تصدر من قاطني المنزل القابعين في غرفهم ... صوت الموقد بهديره الخفيف الثابت ...

تفاصيل ساعات العصاري الجميلة التي كانت بمثابة حمام منعش لروحه ... خطر له لحن قديم كان يسمعه أيام شبابه الأولى فأخذ يدندنه محاولاً استذكاره ... أغمض عينيه محاولاً جلب تلك الأيام الى مخيلته ... الجامعة وأصوات النقاش والضحكات وأمواج البشر ... الجلوس في الكافيتريا واختلاس النظر نحو الفتيات ... الأيام التي كان فيها الناس من لحم ودم قبل أن يتحولوا الى مجرد صور صناعية نضع لها اعجاباً بلا مبالاة وننتقل الى غيرها وهكذا دواليك.

أيام مضت ... وجاءت هذه الأيام الكالحة التي لا يستطيع فيها مغادرة البيت ... بالنسبة لشخص يمضي اليوم بعد العمل متنقلاً بين بيوت الأقارب والأصدقاء والنزهات في الشوارع وكل مكان ممكن كان حظر التجول بمثابة عقوبة صريحة وشيء لا يطاق ... حاول بادئ الأمر تجاهل كل التحذيرات من ذلك الوباء باعتباره خزعبلات اعلامية لا أكثر ولكن

أخبار الموت التي أخذت تأتي بشكل يومي وجاره أحمد الذي شاهدهم يحملوه نحو المشفى الذي لم يعد منه قط كل هذا جعله يهدأ قليلاً ... أصبحت البيوت مغلقة أمام الزائرين ولم تعد الشوارع ترحب بالغادين و الرائحين والويل لمن يتسكع ويتظاهر بأن الحياة كسابق عهدها ... ولم يعد له سوى الجلوس في البيت مكرهاً وهو الذي لم يكن يكره أي شيء أكثر من ذلك ... ما باليد حيلة.

تسللت إلى أنفاسه رائحة الشاي الزكية ... ها قد بدأ التحضير لطقوس السهرة ... الشيء الوحيد الذي يعطيه بعض الطاقة لاحتمال هذا الوضع الذي لا يطاق ...

قام بتثاقل واتجه نحو المطبخ ... كانت زوجته سلوى تصفّ كؤوس الشاي وتملأ الأطباق بالمكسرات وقطع الحلوى الصغيرة ...

ابتسم عندما رآها وبادلته الابتسام ... سألته وهي تحمل إبريق الشاي وتضعه وسط الصينية:

- هل أنت بخير؟

حك شعره قليلاً ثم أجابها شارداً:

- نسبياً ... يبدو أنني لن أستطيع التأقلم مع الأوضاع الجديدة.
- لم تعد جديدة لهذا الحد ... مضت سنة ونصف تقريباً منذ بداية الوباء.

رفع كتفيه وبقي صامتاً فابتسمت مشجعة وتابعت كلامها:

- مازال لدينا سهرات الشرفة الخلفية ... هناك الزحام البشري الذي تحبه.

هز رأسه قائلاً:

- هذا هو الأمر الوحيد الذي يمنعني من الجنون والحمد لله.

ثم أمال جسمه للوراء ونظر الى ركن ما سائلاً:

- هل خرج البقية إلى شرفاتهم ... لا أريد أن أكون الأول ... أحب سماع أصواتهم أولاً.

حملت زوجته صينية الشاي وقالت وهي تتجه نحو ذات الركن:

- لن يتأخروا ... لقد هبط المساء وسيخرجون بمجرد سماع أي جلبة هناك.

غمغم وهو يتبعها حاملاً بقية الأطباق:

- لم أكن أحب أبداً وجود الشرفة الخلفية ... كنت أراها صغيرة وقريبة من بقية الشرفات وقد تأتي بخطر ما كاحتمال تسلل شخص ما بغرض السرقة.

قالت زوجته بصوت ضاحك:

- الآن أصبحت نجمة المنزل وأهم بقعة فيه ... أليس كذلك؟
- هذا صحيح ... سبحان مغير الأحوال.

.....

وقف سامي بمنتصف الغرفة وأخذ ينظر نحو المكتبة في رضا ... لقد تطلب الأمر سنوات طويلة وكثيراً من الجهد والمال لتمتلأ بالكتب ... وها هي التي كانت زمان تتكون من رفين صغيرين قد احتلت جداراً كاملاً لامعةً تتلألأ الكتب داخلها ... لكل كتاب ذكرى ورحلة بحث عنه تبدأ بدخول مكتبة ما واكتشاف وجوده وتقليب صفحاته ليستقر بعدها في مكانه هنا بين الرفوف.

كان الظلام قد بدأ ينتشر في أرجاء الغرفة لذلك أنار الضوء وأصاغ السمع ... يبدو أنهم لم يخرجوا للشرفات بعد ... اتجه نحو المطبخ ووضع ابريق الشاي على نار الموقد ثم اتجه نحو الخزانة وأخرج علبة الحلوى المعدنية المستديرة ووضعها على الطاولة وأخذ يتأمل الرسوم المنقوشة عليها ... تذكر أمه رحمها الله ... كانت تحب هذا النوع من الحلوى وورث عنها هذا الحب ... كان يحضرها لها باستمرار في كل مناسبة وبقي بعد وفاتها يجلبها لنفسه

ويجلس ليأكلها وحيداً أو مع ابنته لو تصادف وجودها في تلك اللحظات التي يرغب خلالها باسترجاع الذكريات ... الذكريات التي أخذت تزداد بعداً بقدر التجاعيد التي تملأ تفاصيل وجهه.
بدأ الماء بالغليان ففتح علبة الشاي ووضع قليلاً منه وأطفأ الموقد ... حمل العلبة وكأس الشاي واتجه نحو الشرفة الخلفية ... سمع بعض الأصوات تتسلل من هناك فابتسم برضا ... الإيجابية الوحيدة التي أتته من ذلك الوباء بعد أن أجبره على العزلة والابتعاد عن البقية الباقية من الذين حوله ... التمع سطح علبة الحلوى بينما كان يمر أسفل الضوء ومد يده ليفتح باب الشرفة.

.....

وضع رياض المفك جانباً وأخذ يتأمل ساعة الحائط بتمعن باحثاً عن عيب ما ... كان قد انتهى لتوه من

صنعها ... أمسك علبة الملمّع وأخذ يغمرها بطبقة منه ... ألقى عليها النظرة الأخيرة ثم علقها بحرص على الحائط ... سيتركها لتجف ثم يبقى تركيب العقارب وتصبح بعدها جاهزة ...

شعر ببعض التعب فجلس على الكرسي الوحيد الموجود في الغرفة ومد يده نحو الراديو القديم وأداره وبدأت الموسيقى تتسلل لأنحاء الغرفة ...

هذه حفلة لفايزة أحمد ولا شك ... لا بأس أبداً

أشعل سيجارة وبدأ ينفث الدخان وهو ينظر لسقف الغرفة ... زمان قبل أيام الوباء هذه كان يعمل في الإنشاءات ... مجرد عامل في ورشة قبل أن تصبح له ورشته الخاصة ... لم يحب هذا العمل مطلقاً ولم يكن هو من اختاره .... صحا من النوم ذات يوم على صوت والده ووجد نفسه بعدها داخل مستودع مليء بالبلاط والغبار ... وعندما غادر وتركه هناك أخذه أحد العاملين وأركبه على ظهر عربة نقل كبيرة وهكذا وجد نفسه طوال السنين التالية ينقل

الأحجار ويعد الشاي ويتلقى الاهانات والضرب أحياناً ... ... وبينما كان العمال يجلسون ساعات الاستراحة ليتبادلوا المزاح الخشن والنكات الجنسية والحديث عن مغامراتهم الخيالية كان يجلس بعيداً يدخن ويشرب الشاي ... ولم يحسن هذا الأوضاع كثيراً ...

لم يحب هذا العمل مطلقاً ... حتى وهو ينتقل من مجرد مساعد صغير ليصبح صاحب العمل ... لم يكن يعد هذا انجازاً طالما أن العمل نفسه لم يتغير ... وعندما بدأ الوباء بالانتشار أخذ العمل يقل ببطء حتى اختفى تماماً ... جرب العمل كعامل في ورشات البناء الكبيرة ووجد أنه لن يستطيع تحمل ذلك مرة أخرى ... هكذا جلس في البيت وأخذ يتسلى بافتعال الشجار كلما أمكن ذلك ... أصبح لا يطاق فعلاً وشعر هو نفسه بذلك ...

الى أن جاء ذلك اليوم الذي شاهد فيه على هاتفه مقطع فيديو لرجل يصنع ساعة حائط في كراج بيته

... شاهده بشكل عابر في البداية ثم أعاده عدة مرات وقد بدأت عيناه بالالتماع ... دخل في المساء إلى إحدى الغرف وأفرغها ثم جلب طاولة كبيرة وبعض أدوات النجارة وبدأ بالتجربة ... شاهد المزيد من مقاطع الفيديو تلك ... بعد اسبوع كان يمسك بأول ساعة حائط صالحة للبيع.

كان يعمل بمفرده لذلك لم يدرَّ عليه هذا العمل الكثير ولكنه على الأقل حماه من الجوع والاستدانة ... ومن الملل والمشاكل ... أصبحت هذه الغرفة هي عالمه ... يعمل من الصباح الباكر حتى ذهاب الشمس ...

نظر من خلال النافذة ... كانت الشمس قد ذهبت فعلاً ... حان وقت سهرة الشرفة الخلفية ... خرج من الغرفة وأخذ دشاً ثم ذهب نحو المطبخ وبدأ يساعد زوجته في تجهيز لوازم السهرة ... حمل بعدها طبق الحلوى واتجه نحو الشرفة الخلفية.

.....

نظر خالد إلى ساعة الهاتف وأخذ ينفخ في ضيق ... ثم تذكر أن النفخ شيء خطر فتوقف وهو يشعر بغيظ كبير ... كان يجلس على مقعد مقابل لمرآة الخزانة يتبادل النظرات الغاضبة مع انعكاسه هناك ويلعن حظه بكلمات مكتومة ... لقد فعل ما بوسعه لكي يستطيع أن يعيش الحياة التي يريدها ... هذا الهاجس الذي لاحقه منذ أن كان طالباً في الثانوية ... لم يكن يخرج ويلهو مثل بقية أصحابه الذين كفوا في النهاية على أن يكونوا كذلك بعد أن انقطع عن الخروج معهم بشكل تام ... الكتب والمذاكرة ولا شيء غيرها ... كان الهدف أمامه واضحاً بما لا يقاس ... كلية الطب ... وعندما استطاع اجتياز باب الكلية كانت نفسه تموج بشتى المشاعر ... إن هي إلا سنوات وسيمتلك نافورة النقود الخاصة به ... وفي سبيل ذلك تحمّل عجرفة العديد من دكاترة الكلية

وحصص التشريح التي كانت تشعره بالغثيان وهو يحاول جاهداً اقناع نفسه بأن الجثة التي أمامه مجرد لعبة وليست جسم بشري حقيقي ... التخصص والتخرج وسنة التدريب ... لقد أصبح الأمر وشيكاً ...

كان هذا عندما بدأ الوباء بالانتشار ...

رأى خالد نفسه يُنتزع من قسم التدريب ويُزج به ضمن الأطقم الطبية التي تعمل في أجنحة العزل الصحي ... حاول الاعتراض بلا فائدة ... تلك القرارات اللعينة غير قابلة للكسر وإلا فالويل له ... هكذا أصبحت حياته سلسلة من المناوبات التي لا تنتهي ... الأجنحة المليئة بالمرضى الذين يحدقون برعب في أي قادم ... الشعور بأن الأيام القليلة القادمة قد تكون الأخيرة يجعل التعامل معهم صعباً جداً ... وعليه أن يفعل هذا من دون أن تصيبه العدوى وينضم لهم أيضاً ... أصبحت حدود الكمامة دائمة الثبات على وجهه ... وعند دخوله الى قسم العزل

الآخذ بالتضخم كان يرمق القسم الخالي من الزوار في تعاسة ... للدقة كان هناك زائر وحيد يأتي إلى هنا وهو الموت.

أما عن لحظة انتهاء مناوبته وذهابه للبيت فهذا نوع آخر من العذاب ... الجلوس في غرفة مغلقة بمفردك بينما تجلس زوجتك وطفلك الصغير في بقعة أخرى من البيت ... أنت طبيب في المشفى ومريض في البيت فمن يدري لعلك التقط العدوى في لحظة ما ... عملك في محيط موبوء قد يجعلك موبوءاً ايضاً ...

في البداية كان يمني نفسه بسرعة انتهاء الوباء بطريقة ما ولكنه فقد الأمل في النهاية وفقد معه الصبر والرغبة في أي شيء

عاد ونظر إلى الساعة مرة أخرى ... ثم صب كأس قهوة كبير من الترمس الكهربائي وحمله واتجه نحو الشرفة الخلفية ومد يده وفتح الباب.

.....

وضع محمود أطباق المكسرات والحلوى على الطاولة الصغيرة وأنار الضوء الخفيف المثبت أعلى الشرفة ثم جلس هو وزوجته على الكرسيين الذين احتلا مع الطاولة الصغيرة كامل مساحة الشرفة ... قال وهو يستدير باحثاً عن جلسة مريحة:

- بالكاد أرى لنفسي مكاناً هنا.
- هي ليست أصلاً مخصصة للجلوس ... مجرد مساحة لتعليق الغسيل لكي يجف وتبادل الأحاديث العابرة مع بقية الجارات...

فتح في تلك اللحظة باب شرفة رياض الذي خرج هو وزوجته وتبعه سامي على الطرف الآخر ثم خرج خالد وجلس في أقصى مكان في شرفته ووضع كوب القهوة أمامه

تبادل الجميع التحية ثم لاذوا بالصمت لبعض الوقت ... تنحنح سامي وقال بمرح:

- ما رأيكم ببعض أغاني فيروز الليلة ثم نجرب شيء آخر.

ابتسم رياض وقال:

- أغاني ليلية!! ... لم أسمع بهذا المصطلح من قبل... لم أكن أعلم أن فيروز تمتلك أغان ليلية ... حسبت أنها مخصصة فقط للفقرة الصباحية من النهار.

هز سامي راسه بحماس قائلاً:

- هناك أغاني لا تسمع إلا في أوقات محددة من النهار ... وهذه أغنية ليلية فعلاً.

وضغط زر المسجل القديم وبدأت الألحان بالانسياب منه ... وبينما كانت فيروز تؤكد بأن الليل قد سكن وفي ثوب السكون تختبي الأحلام كان محمود يختلس النظر نحو خالد الذي جلس يرتشف قهوته في كآبة ... ثم غمز سامي وأشار بطرف خفي نحو خالد ثم التفت نحوه وسأله بكياسة:

- كيف حال أحد أبطال العصر الراهن؟

ارتسمت على خالد ابتسامة باهتة وقال وهو يضع كوب القهوة جانباً:

- رائع بما لا يقاس ... أعداد المصابين في ازدياد ولا مكان تقريباً لترف أن تصاب بمرض آخر غير الكورونا ... وأنا في المشفى سجين الكمامة والرداء العازل وفي البيت سجين الغرفة ...

لوح سامي بيده قائلاً:

- لا تستسلم لهذه الهواجس يا بني ... سيأتي يوم ويمضي هذا الوباء كما حدث لغيره.

ضحك خالد ضحكة صفراء وقال:

- أنت محظوظ يا عم سامي ... بالنسبة لي لم أعد متأكداً من إمكانية حدوث ذلك لهذه الدرجة ... لقد ولد طفلي الوحيد في بداية انتشار الوباء وها هو الآن يبدأ المشي ولم أستطع حمله حتى الآن ... لم أستطع حتى منحه أختاً أو أخاً ... أراقبه من بعيد وكأنني

غريب يرى طفلاً يسير في الشارع ... صرت منبوذاً من جميع أصدقائي ومعارفي وأيضاً هناك في هذا المبنى من لا يرغب في رؤيتي فيه؟؟

تدخل محمود في الحديث قائلاً:

- دعك من كل هذا ... نحن نجتمع هنا كل يوم وأنت جزء من هذه السهرة ... أنت لست وحدك كما تظن ونحن نمضي ساعات جميلة حقاً هنا.

هز خالد رأسه موافقاً وقال:

- للحق هذه السهرات هو الشيء الوحيد الذي يمنعني من الجنون الصريح.

قال سامي محاولاً تغيير اتجاه الحديث:

- كلامك أوحى لي بسؤال ... مضى علينا أشهر ونحن نجتمع هنا يومياً ... بخلاف تمضية جزء من أوقات الحظر الطويلة ما هي القيمة

المضافة التي يعتقد كل منكم أنه اكتسبها من سهرات الشرفات الخلفية؟

صمت الجميع لبعض الوقت ثم قال رياض:

- لقد قضيت عمري وأنا أُعامل على أني عامل انشاءات ... هذه القوالب التي يضع الناس بعضهم البعض فيها والويل لمن يجرؤ على مغادرة قالبه ... أتفهم أن لكل محيط اجتماعي مفرداته وطريقة تفكيره واسلوبه الخاص ولكن معاملة البشر على أنهم نسخ نمطية مكررة شيء لا يمكن احتماله ... تلك النظرة التي أُرمق بها عندما أكون في مناسبة ما ويعرف سعادة المهندس أو الدكتور أو الضابط بنوعية عملي ... تلك النظرة التي لا تحتمل وتدفعك للهرب بعيداً ... للحق لم أجد هذه النظرة هنا أبداً.

غمغم سامي قائلاً:

- لأن من يعاملك هكذا هو مجرد أحمق ضيق الأفق ... المعيار الحقيقي هو للأخلاق وحسن التصرف وليس لتفاصيل معينة قد نجبر عليها ... كثير من اللاجئين اضطروا للعمل في أنواع عمل صعبة والكثير منهم يمتلك شهادات جامعية ... من يعاملك هكذا يفتقد للحكمة وحسن التصرف.

رفع محمود يده وقال:

- أنا "معشراني" كما يقال عني ... أحب حضور الأعراس والتعازي وعضو دائم في أي رحلة وضيف يومي على الأقارب والأحباء ... هذه هي الحياة التي أحبها والتي عشتها طوال حياتي ... لكن هذه الكورونا السافلة أوقفت كل شيء ... لم يعد هناك أعراس ورحلات ... حتى التعازي أوقفوها وأصبح البشر يدفنون بنعوشهم وكأنهم نفايات نووية ... أغلق الناس أبوابهم وكفوا عن استقبال أحد

... بالنسبة لي كان هذا تذكرة مضمونة للجنون ... فقط سهراتنا هذه هي ما أبقت الحياة محتملة إلى حد ما ... وهناك شيء آخر ... نوعية الأحاديث هنا مختلفة ... في الزيارات التي كنت أقوم بها كنت أستطيع توقع الأحاديث التي ستدور حتى قبل أن تبدأ ... يتحدثون بنفس المواضيع وبنفس الكلام كل مرة وكأنهم ممثلون في مسرح ... حتى الممثلون يقومون بالخروج عن النص أحياناً أما هم فلا ... لكني فقدت هنا القدرة على ذلك كلياً وهذا شيء جميل ...

هز سامي رأسه في استمتاع وهو يضع شريطاً آخر في المسجل ويضغط زر التشغيل ويبدأ عبد الحليم بالتأكيد بأن الليل أنوار وسهر ونجوم وقمر وشجون في شجون ... التفت بعدها الى خالد قائلاً:

- دورك الآن يا خالد.

رشف خالد رشفة طويلة من كوب القهوة ثم قال:

- لأكن صريحاً ... أنا كنت عكس محمود تماماً ... منذ سنوات الدراسة امتلكت حياةً خاليةً من أي مظهر اجتماعي ... حياةً أستطيع اختصارها بكلمة واحدة : الدراسة ولا شيء آخر غير ذلك ... لدرجة أني لم أكن أدري ما يدور من حولي أبداً ... وإن حدث وكنت في مناسبة ما ... وهذا شيء نادراً جداً ... كنت أبدو كالمعتوه ولا أكاد أجيد الخوض في أي حديث غير طبي ... عندها أضطر للاختباء وراء لقبي الذي أعطاه الناس لي منذ اليوم الأول في الجامعة ... لقب دكتور ... وأتظاهر بالحكمة والعمق ... يرددون كلمات الإعجاب إزاء أي شيء أقول مهما كان أحمقاً ... هذا شيء جميل ومريح كما ترى ... يتيحون المجال لنا لكي ننظر لهم بفوقية باعتبارنا نفهم في كل شيء ثم يغضبون عندما نعاملهم بهذه الفوقية ... كذبوا هم الكذبة

وصدقناها نحن ... هنا لا أشعر بشيء من ذلك ... أشعر بصحبة بشرية حقيقية وبدأ هذا الجانب السلبي من شخصيتي بالزوال.

ساد الصمت للحظات ثم قالت سلوى زوجة محمود:

- هل هذا السؤال فقط للرجال ولا يحق لنا نحن النساء الإجابة عليه!؟

ضحك سامي وقال:

- بالطبع لا ... نحن نجيب بشكل تلقائي ... لنقل أنه دورك الآن.

انتهت سلوى من مضغ قطعة مكسرات ثم قالت:

- أنا كما تعلمون معلمة في مدرسة ابتدائية ... وكوني مدرسة فصفات العصبية وسرعة الغضب تبقى ملازمة لهذا النوع من الأعمال ... ينظر لي الطلاب على أنني الغولة التي تجعل حياتهم جحيماً والآباء على أنني من سيدمر مستقبل أبنائهم ... إطلاق الأحكام

الجاهزة أمر في غاية السهولة ... لكن أروني ما الذي يستطيع فعله أي شخص يجد نفسه أمام أكوام الطلاب التي تمتلأ بهم الفصول ... أولئك الآتي معظمهم للهو والعبث ... هناك من لا يستطيع ضبط سلوك أبناءه الذين لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة ويأتي بعدها ويلوم المعلمين على صرامتهم إزاء كل تلك الأعداد ... وكان يوم سعدي عندما بدأ الوباء وأصبحت الدراسة عبر الإنترنت ... هكذا أصبحت أستطيع ضبط الأمور بشكل لا يصدق ... لا يكلفني إسكات أي مشاغب سوى ضغطة زر ... ما أجمل هذا!؟ ... أها ... يبدو أنني لم أجب عن السؤال بعد ... لنقل أن سهرات الشرفات الخلفية أبعدتني عن الروتين القاتل الذي كنت أعيشه بلا رحمة وأعطتني جواً أسرياً افتقدته طويلاً.

ثم التفتت الى زوجة رياض وسألتها:

- ماذا عنك يا سماح ... ألن تجيبي عن سؤال الليلة!؟

نظرت سماح حولها في خجل ثم قالت بصوت منخفض:

- لقد أصبح رياض أقل عصبية.

أخذ الجميع يضحكون باستغراق ثم قال رياض وهو يسعل:

- رغم شعوري ببعض العصبية من هذا الجواب ولكنها محقة فعلاً ... لقد حولني الحظر وانقطاعي عن العمل لشخص لا يطاق ولكني كففت عن ذلك منذ زمن.

ثم التفت نحو سامي وقال:

- لم يبق غيرك يا عم سامي ... ألن تجيب عن سؤالك أنت أيضاً؟

أخفض سامي صوت المسجّل وقال بتأثر:

- أنا كما ترون عجوز في نهاية العمر ... قضيت أغلب حياتي بين الكتب وهواجس تعلم الأمور الجديدة ... في أيام الطفولة كنت أعيش في بيت مليء بالبشر ... كنا عشر إخوة وكان الليل فقط هو وقت انقطاع الأصوات من البيت ... البيت القديم بنافورة الماء والحديقة التي تتوسطه ... كنت في وسط الترتيب العمري لذلك لم أكن من فئة المعتمد عليهم ولا من فئة الصغار المدللين ... هذا جعلني على الهامش وبالكاد كان يذكر اسمي في البيت حتى جاء ذلك اليوم الذي أتيحت لي فيه فرصة الدراسة ... بعد زواج البنات اللاتي يكبرنني وعمل إخوتي الذكور رغب والدي رحمه الله بولد متعلم يتفاخر به أمام أقاربه وأصدقائه ... تفحصنا بعين خبيرة مراراً ثم أشار لي قائلاً :

- هذا الولد هناك ... يبدو أنه منكوب ولا يصلح للعمل ... ستذهب معي غداً يا ولد لنقطع لك قماشاً لثياب المدرسة ... ستتعلم والويل لك إن فشلت.

يومها لم أستطع النوم ... كانت السعادة المفرطة تهزني بعنف وتكاد تسقطني من السطح الذي جلست على حافته طوال الليل ... أخيراً سأكون متميزاً عن بقية أقراني وسأصبح واحداً من الرجال النظيفي الثياب المفتولي الشنبات ...

وكانت الأيام اللاحقة هي الوقت الذي اكتشفت فيه وجود كائنات سحرية اسمها الكتب ... كنت أفكر بانبهار بأولئك الكرماء الذين قبلوا بعناء كتابة ما يعرفونه على تلك الصفحات التي كنت التهمها بلا رحمة ... والدي الذي كان يغادر المدرسة والابتسامة لا تفارق وجهه بعد عبارات الثناء التي سمعها من المدرسين ... كان يتأملني أحياناً وأنا غارق في القراءة والمذاكرة ثم يلتفت لأمي ويقول لها:

- هذا الولد يقضي نهاره في الأكل والكتب.

تبتسم أمي وتقول بحنان:

- سيصبح دكتوراً أو مهندساً أو مديراً في احدى المديريات ... وفي وقت ذهابه وعودته من العمل ستقف الفتيات وراء الشبابيك يخطفن النظرات إليه بينما تحلم كل واحدة منهن باليوم الذي أدق باب بيت أهلها لكي أطلبها له.

يضحك والدي ويلوح بمبسم النارجيلة قائلاً:

- واحدة فقط!! وتكسرين خاطر البقية.

ويضحكنا سوية بينما أنا أخفض أنظاري في خجل واتابع القراءة ...

وكان ما رغبوا به ... وأصبحت من مفتولي الشنبات مع منصب حكومي وزوجة من أولئك المختبئات وراء الشبابيك ...

يقولون أن العظام تتوقف عن النمو وتتكلس في وقت ما ... وهكذا البشر بالمجمل ... تتكلس حياتهم

على نمط معين ولا ينتبهون الى الخسائر التي تلحق بهم من جراء ذلك ... الكتب والمشاغل وتباين طريقة الحياة والتفكير جعلتني أبتعد عن زيارة بقية أخوتي ... كنت أجتمع معهم في بيت والدانا بمناسبات محدودة ... لم أنقطع عن زيارة أمي وأبي ولكنهم مع الزمن لم يعودا موجودين ... رحمهم الله ... واكتشفت أن أحد من أخوتي لم يكن يريد التواصل معي ... كانوا يروننني متعجرفاً ينظر لهم من فوق ... لا أعلم إن كنت كذلك حقاً ... هناك كثير من الأمور التي يجهلها المرء عن نفسه ... ولو عرفها لأصابته الدهشة وقد يصيبه الرعب أيضاً ...

تزوج الأولاد وصحوت يوماً ما لأكتشف أن رفيقة الحياة قد رحلت هي الأخرى وبقيت وحيداً ... وحيداً كما يليق بأن يوصف شيء بهذه الكلمة ... أنا وكتبي التي جمعتها طوال عمري ... الكتب الرائعة برغم أنها لا تغنيك عن البشر ... لم يبق لي من الزحام سوى شلة أصدقاء عجائز مثلي فضلوا الكلام حول

الثقافة والسياسة عن الكلام حول أيام زمان والأسعار والبركة التي لم تعد موجودة ... كنت أقول لنفسي لو تكلمنا أيضاً بهذه الأمور قد نصبح أكثر أدمية ولخف التكلس من عقولنا قليلاً ولكن أحداً منهم لم يرغب بذلك أبداً ... رغم ذلك كنت أحب تلك الاجتماعات على الرغم من معرفتي أنها ستنتهي سريعاً وأعود الى سكون البيت وساعاته الثقيلة ...

وجاء الوباء ولم نعد نستطيع الذهاب لتلك الاجتماعات ... أغلقوا المقاهي ومنعونا من التحرك بحجة الخوف على سلامتنا ... وكأن سلامتنا هذه ستكون مهمة بالنسبة لنا في ظل هذه الظروف ... وكأن هذا ما كان ينقصني ... قضيت أياماً أشد سواداً من قلب ديكتاتور ثم بدأت أسمع أصواتاً تأتي من جهة الشرفات الخلفية ... تلك الجهة المهملة من المنزل ... أصواتاً ذكرتني ببيت العائلة والنافورة والحديقة التي تتوسط المنزل ... كان عليَّ تنظيف

الشرفة وكان عليكم قبولي في هذه السهرات ... وقد كان ... وكانت القيمة المضافة التي كسبتها من سهرات الشرفات الخلفية ... الصحبة الأدمية كما يجب أن تكون وكما رغبت بها دوماً.

ساد الصمت أرجاء المكان بينما انبعث صوت شادية من مكان ما وهي تكرر بأنها آخر ليلة ... هبت نسمة هواء باردة نوعاً فقال محمود:

- يبدو أن الشتاء سيأتي مبكراً هذا العام ... ما علينا.

ارتفع فجأة صوت التلفاز من داخل أحد البيوت ... فالتفت رياض نحو المنزل وسأل بصوت عال:

- ماذا يحدث عندكم!؟

جاءه صوت ابنته وهي تقول بفرح:

- يقولون أنهم اكتشفوا لقاحاً للكورونا .

بدأت أصوات السعادة والهتافات تأتي من أماكن متعددة ... ووقف خالد وصاح في سعادة :

- حمداً لله ... سأتمكن من احتضان طفلي واللعب معه ... سأعود لتخصصي ولحياتي الطبيعية.

تصاعدت الضحكات من الجالسين وقال محمود وهو يلوح بمسبحته:

- لقد اشتاقت لي الأعراس والحفلات واشتقت لها كثيراً ... سأخرج الآن ولن أعود للبيت قبل شهر على الأقل.

ضحك رياض وقال له:

- اصبر حتى يوزعوا اللقاح على الناس أولاً ... سأفتتح أنا دكاناً ومشغلاً وسأبيع ساعات الحائط ... لن أعود الى عملي القديم بإذن الله.

التفت خالد نحو سامي وسأله بحذر:

- ماذا ستفعل أنت يا عم سامي؟

ابتسم عم سامي ابتسامة شاحبة وقال بهدوء:

- سأعود الى المقهى وللشلة التي لا تحب أحاديث الأسعار والمأكولات التي فقدت لذتها.

صمت الجالسون قليلاً ثم قال محمود بسرعة:

- لا تقلق يا عم سامي ... حتى لو عادت الحياة لطبيعتها فلن تتوقف سهراتنا وسنجتمع هنا كما تعودنا كل يوم.

هز سامي رأسه وهو يعبث بالمسجل قائلاً:

- أرجو ذلك من كل قلبي ... لقد قضينا هنا أوقاتاً لا تنسى ... الحياة متحركة بطبعها ولا تقف عند أحد ولا تهادن أبداً ... كان هناك وباء أجبر الناس على التباعد والجلوس ببيوتهم ثم أصبح الآن بحكم المنتهي ... ستنتهي معاناة الناس وستعود للامتلاء جيوب ظلت خاوية لفترة طويلة ... ستتنفس الأرواح الحبيسة وستعود الحركة الى أماكن

كثيرة هُجرت بعد أن اعتادت على الزحام ...
الحياة لا تقف ولا تهادن أبداً.

.....

خلع سامي نظارته على الطاولة وبدأ يفرك عينيه في تعب ... نظر الى الساعة ثم إلى النافذة التي أنبأته بهبوط الظلام ثم قام وتوجه نحو باب الشرفة الخلفية ... وقف أمامه متردداً ثم فتحه ووقف وهو يتأمل الشرفات الخلفية ... الشرفات المغلقة الأبواب ... الساكنة المتجهمة ... هبت نسمة هواء دافئة فأغمض عينيه ثم فتحهما وعاد ليتأمل الشرفات الخلفية ... كان يسمع أصوات الضحكات ورشفات الشاي والهمهمات والأحاديث التي لا تنتهي ... الأصوات الباقية رغم ذهاب أصحابها ... الصمت الصاخب
إنهم هنا ... أنا أسمعهم

هز سامي رأسه ثم استدار نحو الغرفة وأغلق الباب.

تمت

هذه قصص جرت في زمن ارتداء الكمامات
والتباعد الاجتماعي .. زمن الخوف من العدوى
وزمن ممارسة الحجر الصحي....ستتعرف على
البصّاقين وأساليبهم في اصطياد ضحاياهم وستسير
مع ثلاثة صبية يبحثون بإصرار عن الكورونا
....ستكون بصحبة الجالسين في الشرفات الخلفية
وستستمع لأحاديث حسام ولبنى
عن ذكرياتهم وعن ذلك الطريق
هذه قصص من زمن الكورونا ولأنها كذلك
فسيكون بانتظارنا الكثير من الخوف والترقب
والأمل